

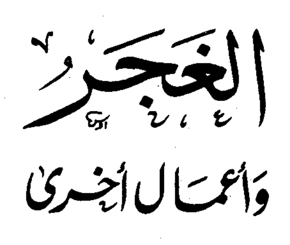
سلسلة الأدب

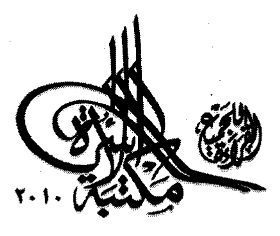
الغجر
وأعمال أخرى

الكسندر بوشكين

ترجمة وتقديم : رفعت سلام




الغجر
وأعمال أخرى



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د . محمد صابر عرب

تصميم الغلاف

د . مدحت متولى

الإشراف الفنى

ماجدة عبد العليم

على أبـو الخير

صبرى عبد الواحد

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

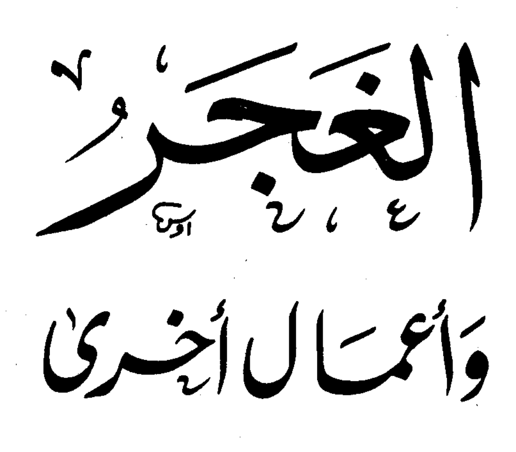
وزارة الإعـــلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

المجلس القومى للشباب

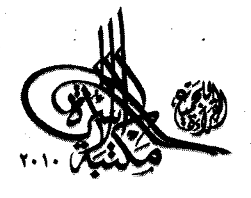
وزارة التنمية الاقتصادية



الكسندر بوشكين

ترجمة وتقديم

رفعت سلام



الفجر وأعمال أخرى

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : **كامل مصطفى**

بوشكين، ألكسندر سرجيفتش، ١٧٩٩-١٨٣٧

الفجر وأعمال أخرى / ألكسندر بوشكين؛ ترجمة وتقديم رفعت سلام ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠.

٣١٢ ص ؛ ٢٠ سم. (مكتبة الأسرة ٢٠١٠).

تدمك ١ - ٥٠٠ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ ـ الشعر الأمريكى

أ ـ سلام، رفعت (مترجم ومقدم)

ب ـ العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٩٨٨ / ٢٠١٠

I.S.B.N 978 - 977- 421 -500 - 1

ديوى ٨٢١



توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة،

وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

تقديم

لقد قرأت (بوشكين) مترجمًا.. لكن ترجمات عديدة لشعره لم ترُق لى؛ لأن من قام بها محض مترجمين لا يملكون حسًا حقيقيًا، ولا يملكون تلك المفاتيح السرية العجيبة التى تمنح من يملكها قدرة على سبر أغوار النص الشعرى المترجم، ولا يملكون- كذلك- قدرة خلابة على الإحاطة بتلك الغيوم التى تظل مختبئة فى النص الشعرى، وتنتظر أصابع قادرة على الوصول إلى ما تكنزه من مطر شعرى عذب وصاف..

لقد كان ضجر كبير يمسنى كلما قرأت تلك الترجمات المملة التى يركز أربابها على المعنى الحرفى للنص، أو على المضمون المباشر الطافى على سطح النص.. فتأتى القصيدة المُترجَمة إما مسخًا مشوَّهًا أو باعثاً على الغثيان كبيانٍ صحفى بارد، أو (فرمان) سياسى معتاد، أو تصريح غير ذى جاذبية..

وثمة ترجمات مسرفة فى قدرتها على الاستفزاز السلبى أثناء

القراءة، إذ تجعلنى أشعر بشعور من يفاجأ ببضع حصوات صغيرة تبرز خلسة بين الأضراس، بينما كان يظن أن ما يقوم بمضغه لقيمات شهية مستساغة..

نعم، قرأت (بوشكين) فى عدد من الترجمات، لكن تلك الترجمات لم ترو عطش الروح التواقة إلى مطالعة جمال صرف وقراءة إبداع خالص، حتى عثرت على ديوان بعنوان (الغجر) يتضمن قصائد منتخبة لبوشكين، بالإضافة إلى تقديم ضاف وعميق عن ذلك الشاعر الروسى الكبير، الذى أحدث انقلاباً مهمًّا فى بنية القصيدة الروسية، وفى مفهوم الشعر بوجه عام، فضلاً عن أنه أخرج القصيدة من ترف (القصور) وأفق (السرايا) المحدود إلى رحابة الحقل، واتساع الأرض، وحركة الشارع وثراء الأحلام واصطخاب الحياة..

تولى ترجمة القصائد التى تضمنها ديوان (الغجر) الشاعر رفعت سلاَّم، وصدر عن دار ابن خلدون ببيروت فى العام ١٩٨٢ ..

وكم كان حبر (سلاَّم) مدهشًا، وهو يقدم للقارئ العربى أرغفة (بوشكين) الساخنة، ببراعة فنان يملك عينين مغايرتين لعينَى أى مترجم عادى كل عدته تكمن فى امتلاك لسان الآخر فحسب.. فضلاً عن كون (سلاَّم) يملك قاموساً لغوياً ذا ثراء واضح، يؤهله لاختيار المفردة والعبارة الملائمة لما يترجمه من شعر، بالإضافة إلى ذلك الإحساس البهى الذى يملكه- وهو إحساس شاعر يرى فيما يترجم من نصوص ما لا يراه سواه من موظفى الترجمة!!

فتأتى النصوص المترجمة على يديه آسرةً باذخة، وهذا ما فعله رفعت سلاَّم مع قصائد (بوشكين). فحين تقرأ قصيدة (الفارس البرونزى)- وهى من أهم قصائد هذا الشاعر الكبير الذى يتغنى فيها بـ"أشياء الفقراء الثمينة"- تشعر فور فراغك من قراءتها بذلك الامتلاء العجيب الذى يحدثه الشعر الحقيقى فى النفس، بحيث تسير- بعد ذلك- "بِرُوحٍ تُهَدِّئُ مِن عَوَاصِفِ الْحَيَاة"، لتهتف من ثم لرفعت سلاَّم ولحِبره الجميل الذى تمثَّل تماماً صوت (بوشكين)، بحيث استطاع أن يجعله يصل إليك صافياً وعنيداً وهو يهتف:- "آهِ، يَا إِلَهِى! أَكَانَ ذَلِكَ حُلمًا.. أم أَنَّ حَيَاتَنَا كَانَت دُعَابَةً أُخرَى مِن دُعَابَاتِ السَّمَاء"..

وحين أكملت قراءة جميع القصائد التى ضمها جناحا هذا الديوان فى نسخته العربية، لم يعد الديوان ديواناً، بل شرع يحلق كطائر جميل فى سماء غرفتى الصافية.. على أثرها، نهضت هامساً فى أذن رفعت سلاَّم مستعيناً بصوت (بوشكين) نفسه قائلاً:- "إِلَى أَينَ تُحَلِّقُ فِى الصَّقِيعِ أَيُّهَا الحِصَان.. وَأَينَ سَتُؤمَرُ بِالتَّوَقُّف؟".

وحين تصل إلى قصيدة (الغجر)، تتكشف لك آفاق تلك القصيدة الملحمة، القصيدة العلامة.. القصيدة التى تعتبر نجمة هائلة فى فضاء الشعر الكونى الحديث، وعندها تماماً.. عند ضفافها الغنية تقبض على نفسك متلبساً بصوت (بوشكين)، مستعيداً نشيده

الجميل ومديحه العالى لأولئك القوم المصابين بلعنة الرحيل الدائم، والشقاء المرير، وبسطوة الغناء الذى يُعدُّ بالنسبة لهم زاداً ليس ينفد فى غمرة كل ذلك الرحيل الطويل، وفى جوع لا نظير له تقترحه الدروب العسيرة والطرق المبهمة..

نعم تجد نفسك تستعيد نشيد (بوشكين) فى السادة (الغجر)، وتستحيل أنت كما لو أنك أصبحت صدًى بهيًا لصوت ذلك الشاعر الكبير:- "فِى الهَوَاءِ الطَّلقِ نَومُهُم هَادِئ؛ كَمَا الحُرِّيَّة إقَامَتُهُم سَعِيدَة...". إنك لا تكتفى باستعادة ذلك المقطع العميق، ولا تكتفى بأن تكون مجرد صدًى لريح الشعر، بل تجد نفسك وقد انتقلت إلى فضاء حياةٍ كاملة لهؤلاء البشر، المعنيين بأعراس الخيام ورقصة الريح ومطاردة الأطياف الجميلة البعيدة، والانقياد لأشواق الروح وجمر القلب، على الرغم من متاعب الجسد التى ليس منها فكاك. وتجد نفسك تعيش معهم تحت تلك القبة الكبيرة الزرقاء الصافية التى تدعى: سماءً، حيث "يُرسلُ القَمَرُ مِن الأعَالِى/ وَمِيضًا أَبيَضَ غَرِيبًا كَاللُّؤلُؤ".. أو حيث "أَنهَارٌ مِنَ الضَّبَابِ تَطوِى قَمَرًا مَاكِرًا..."، سارداً معه عبر الشعر/ الشعر، وليس عبر أى وسيلة نصوصية أخرى، حكاية الشاب (أليكو)، وذلك الرجل العجوز المتهدم، وتلك البنت التى تُدعى (زمفيرا) التى يتألق قلبها كالوردة، وتفيض أشواقها مثلما يفيض النهر..

(أليكو) يرى أنه: "حَيثُ لاَ حُبَّ، لاَ يُعرَفُ المَرَح/ وَتَافِهَةٌ هِىَ الحَيَاةُ وَلاَ تَحمِلُ أَيَّةَ مُتعَة". بينما يردد العجوز، الملىء بكنوز الحكمة

الناضجة، والخبير بمكابدات الحب وأسراره، والضالع فى معرفة تحولات القلب واشتعالات أفئدة النساء الخبيئة: "أَكْثرُ حُرِّيَّةً من طَائِرٍ، هُوَ الحُب:/ حَاوِل أن تَحبِسَه، وَسَوفَ يَطِيرُ مِنك./ إنَّه يَجِيء،/ ثُم وَا أَسَفَاه، يَمضِى إِلَى الأَبَد/ مَهمَا حَاوَلْتَ- مِرَارًا- أن تَستَبقِيَه..."؛ و(زمفيرا)- وهى فى عز احتضارها - تصرخ صرختها المدوية، صرختها المليئة بالتحدى، دفاعاً عن خياراتها فى الحب، فيما المدية تسكن عميقاً جسدها الغض اللدن: "بِحُبِّى لَه أَمُوت".

ما أذكره لرفعت سلاَّم، أنه هو الذى قادنى- فى بدء إطلالتى البكر على أفق الشعر العالمى- إلى (ماياكوفسكى)، الشاعر الروسى الكبير الذى قال ذات مرة: "لو لم أكن شاعراً لكنتُ فلكيًا تقيًا)... فبعد سأم طويل من ترجمات جمة تجرَّعتها قسراً كمن يتجرع كأساً من (حليب الغبار)- بحسب تعبير الشاعر العربى الكبير عبد الله البردونى-.. قادنى سلاَّم إلى (غيمة) ماياكوفسكى، لأرتوى هادئاً من مائها الذى تكنزه، وهو ماء صاف، وذلك عبر ترجمته الشهيرة لديوان "غيمة فى بنطلون"! تلك النسخة الجميلة التى ضاعت منى فى حريق مباغت، أتى على كل ما فى غرفتى الصغيرة البسيطة التى كانت مشيدةً فوق السطوح!

لقد استطاعت ترجمته تلك أن تجعلنى أشيد جسراً وطيداً من المحبة مع الشعر العالمى الحديث، بأى لغة تمت هندسته فى الأصل، وبأى ضوع رفرف عالياً وحلق..

إن ثمة شعراء عرباً ممن يملكون لغة (الآخر) استطاعوا بحبرهم الفصيح نقل قصائد (الآخرين) بكل ما فيها من نبض وحرارة وحياة، لأنهم يسمعون جيداً خرير الينابيع وهى تتدفق فى أوردة تلك القصائد.. ومن أولئك حتماً الشاعر الجميل رفعت سلاَّم..

جريدة "الجزيرة" السعودية،

المجلة الثقافية، العدد، ٢٢٨، الاثنين ٧ يناير ٢٠٠٨.

فَلتَشُقِّى أَيَّتُهَا الرِّيَاحُ وَالأَنْواءُ وَجْهَ المِيَاه،

وَحَطِّمِى الحوَاجِزَ الخَبِيثَةَ القَاتِلَة!

أَيْنَ أَنْتِ أَيَّتُهَا العَاصِفَة، يَا رَمْزَ الحُرِّيَّة؟

فَلتَهُبِّى، فَلتَنْفَجِرِى عَلَى المِيَاهِ الحَبِيسَةِ السَّجِينَة.

بوشكين



زمنٌ للشِّعر والجريمَة



١

لَقَد نَضِجْتُ مِن أَجْلِ الأَبَدِيَّة
وَسَيْلُ أَيَّامِى قَد هَدَأَ...

بزغ الفجر، يوم ٢٧ يناير، على مدينة غارقة فى الثلج والطين. كان الطقس باردًا، والريح تصفر بصوتٍ رتيب، والعابرون يجتازون الطرقات بخُطًى سريعة، وقد انحنت ظهورهم واختفوا فى معاطفهم.

لم يستيقظ بوشكين قبل الثامنة، فهب من فراشه، واغتسل على عجل، وتناول قدحًا من الشاى. كانت ناتالى- زوجته- والأولاد ما زالوا مستغرقين فى النوم، وكان هو الوحيد الذى يعرف أن الشمس قد لا تغيب ذلك اليوم إلاَّ ويكون قد فارق الحياة. ما أكثر ما تألم حتى الآن من الاستفزازات والألاعيب والأكاذيب؛ فإذا مات.. فالموت افضل من عالم يسكنه بنكِندورف ونيقولا الأول ودانتِس وهيكرِن. ومهما يكن، فهو لا يعتقد أنه سيموت، ذلك أن الله عادل.

وتلقَّى رسالة من "دارشياك"- شاهد "دانتِس"- يلح فيها على ضرورة الاجتماع بشاهده، قبل ظهر اليوم. فأجاب بأنه لن يأخذ شاهده إلاَّ إلى مكان اللقاء مباشرةً، وإلاَّ فإنه يقبل أن يختار له خصمُه شاهدًا، ولن يعترض عليه مطلقًا. واستدار إلى عمله: يجب أن يجهز العدد الخامس من مجلته "المعاصر"، وكان يريد أن يضمنها مقاطع من الشاعر الإنجليزى "بارى كورنوال"، أبدت السيدة "إيشينوف" استعدادًا لترجمتها. تصفح ديوان الشاعر، وأشار- بالقلم الرصاص- على قصيدتين كى تترجما، حيث يتحدث الشاعر فى الأولى عن الغيرة، وفى الثانية عن حق كل إنسان فى الانتقام.

ارتدَى أجمل ثيابه، وتعطَّر، وتناول معطفه، وخرج. وعلى درجات الدار التقى بأحد الجيران فحياه. أليس من السخف أن يموت المرء بعدما اغتسل، وبدَّل ثيابه، وتعطَّر، وضبط ساعته، وحيًّا جاره، التقى بدانزاس فى الرابعة، فتناول معه كأسًا من الليمون، وركبا العربة فى اتجاه "تشيرناياريتشكا".

التقت عربتهما بعربة "ناتالى" فى الطريق، لكن أنظار الزوجين لم تتلاق أبدًا. لعل نظرةً وابتسامةً صغيرةً كانتا كافيتين لتجنب الكارثة. وكان "دانزاس" يأمل طول الوقت أن يعترض الجنود سبيلهما، فالمبارزات ممنوعة منعًا باتًا بحكم القانون، وخبر المبارزة

قد بلغ السلطات، فلماذا لم تحرك ساكنًا لمنع اللقاء المسلح؟ إذا قُتل بوشكين، فإن النظام القيصرى سيكون قد تخلص من عدو لدود له. أما إذا جُرح فقط، فيمكن للسلطات- فى هذه الحالة- أن تعتقله، وتدينه، وتنفيه أو تسجنه، لأنه خرق القوانين. وقد أوصت إحدى الأميرات "بنكندورف"- قائد البوليس-: "ما عليك إلاَّ أن ترسل الجنود فى الاتجاه المعاكس!". وقرر "بنكندورف" أن يعمل بالنصيحة.

وصلا إلى المكان المحدد مع "دانتِس" وشاهده فى وقت واحد. تبادل الشاهدان التحية بأدب، وراحا يتفحصان أرض المكان، ثم اختارا موضعًا على بُعد ثلاثمائة متر من الطريق، وأخذا يمهدان الثلوج بأقدامهما مثل طفلين يلعبان. جلس "بوشكين" على الأرض يراقبهما، و"دانتِس" يقف بالقرب منه، وزى الحرس الأبيض يظهر من تحت معطفه.

سأله "دانزاس" ما إذا كان المكان يلائمه، فأجاب بأن الأمر سيان عنده، بشرط أن يسرعا. قاسا الشاهدان المكان، وصنعًا من معطفى الخصمين حاجزين متباعدين بمسافة عشر خطوات، ثم راحا يحشوان المسدسين. ولما انتهيا، وضعا الخصمين على مسافة خمس خطوات من الحاجزين، وأعطياهما المسدسين. وأعطى "دانزاس" إشارة البدء ملوحًا بقبعته.

تقدم "بوشكين" بسرعة من الحاجز، وبدأ فى التسديد. لكن "دانتِس"- الضابط المحترف بالحرس الإمبراطورى- لم ينتظر أن يصل هو الآخر إلى الحاجز، فأطلق النار من مكانه. وخَرَّ "بوشكين" فوق معطفه ووجهه فى الثلج، وجسده لا يتحرك. انطلق الشاهدان إليه، فرفعا رأسه، وبان وجهه رماديًا رطبًا مثل كتلة من طين. همس قائلاً: "أعتقد أن فخذى قد كُسِرت". وعندما رأى "دانتِس" يهم بمغادرة مكانه، صاح به: "انتظر، أحس أن لدىَّ من القوة ما يكفى لإطلاق النار". فرجع "دانتِس" إلى مكانه، ووقف بصورة جانبية، واضعًا ذراعه اليمنَى على صدره ليحمى منطقة القلب.

كان المسدس قد سقط من يد بوشكين- حين سقط- وغرق فى الثلج، فأعطاه "دانزاس" مسدسًا آخر تناوله بيد ثابتة، وصوبه وهو ممدد على الأرض، مستندًا إلى ذراعه اليسرى. صوب طويلاً، ثم أطلق النار، فأصابت الرصاصة غريمه فى ذراعه اليمنَى، واصطدمت بالأزرار النحاسية، مخترقة اللحم. كان الجرح طفيفًا، إلاَّ أن عنف الصدمة طرحه أرضًا.

كانت بقعةٌ من الدماء تلون الثلج بمحاذاة بطن "بوشكين". وأُغمى عليه مرتين، وحين استرد وعيه، سأل: "هل قتلته؟"، فأجابه "دارشياك": "كلاًّ، لكنك جرحته"؛ فقال: "عجبًا! كنتُ أظن أن قتله يلذ لى، لكنى أشعر أنى كنتُ مخطئًا".

كان الدم ينزف منه بغزارة، فجىء بالعربة إلى مكانه، ثم رُفع إليها. كان يحاول- من حينٍ إلى آخر- أن يبتسم ويمزح، لكنه ذلك الألم القارض الذى يهاجمه فى البطن بصورة مباغتة، فتموت الابتسامة. اختنق صوته، وأُغمى عليه، وحين أفاق حاول أن يتكلم من جديد. كان الدم ينزف بلا انقطاع، وحركة العربة تضاعف النزيف بصورة خطيرة، فلم يكن بُدٌّ من التوقف فى الطريق عدة مرات.

وجاء الطبيب فى حوالى السابعة. ضمد جرحه، وأعلن لدانزاس- وهو يغادر الدار- أن حالة المريض سيئة، ولابد أنه سيموت. جاء أصدقاؤه فى هذه الأثناء.. إنهم يقفون الآن جميعًا على ضفة واجدة، وهو على الضفة الأخرى المقابلة، يبتعد لدى كل ضربة من ضربات قلبه. ليس الموت بشىءٍ رهيب، لكن هذا الألم فى بطنه يودى به إلى حافة الجنون.

ولم يدعه "نيقولا الأول" فى سلام على فراش الموت، وأرسل له خطابًا يطالبه بضرورة مراعاة طقوس الدين المسيحى قبل موته، جاعلاً من ذلك شرطًا لضمان مساندته لزوجته وأطفاله بعد الموت.

لم يعد يتمالك نفسه مع الوقت؛ فالاختلاجات الرهيبة تسطو على جسده، فيتقلب من جانب الفراش إلى جانبه الآخر، وينزلق إلى الأرض، ويسيل الزَّبد من فمه والعرق من وجنتيه.

هدأت الأزمة قليلاً عند الصباح، فطلب أن يرى زوجته التى ارتمت عليه باكيةً تجس أطرافه الناحلة، وتغمر يديه بالقبلات. ودخل أصدقاؤه، فراح "بوشكين" يتطلع إلى وجوههم المتعَبة، وعيونهم الدامعة. وجىء إليه بأولاده، الواحد تلو الآخر، وقد أُوقِظوا من النوم. لم يفهموا شيئًا، لكنهم سيفهمون فيما بعد. وهو لن يراهم يكبرون، ولن يكون فخورًا بنجاحاتهم، فهو يتحول منذ اليوم إلى صورة واسم على كتاب.

وخيم المساء على المدينة، ولا يزال "بوشكين" على قيد الحياة، يشرب الماء البارد بملعقة شاى، وينظر إلى الليل بحزن؛ فثمة أشياء كثيرة لم يقلها بعد، وما أكثر الألوان والأفكار والإيقاعات التى تملأ رأسه. وقصيدة على مكتبه لم يفرغ منها:

لَقَد نَضجْتُ مِن أَجْلِ الأَبَدِيَّة

وَسَيْلُ أَيَّامِى قَد هَدَأ...

كل شىء ينام فى الدار، وأرصفة نهر "النيڤا" مقفرة، والفارس البرونزى فى ساحة مجلس الشيوخ يرتدى عباءة من الثلوج، وثمة حراس يتجلدون فى أماكنهم، وأناس يرقصون فى مكانٍ ما، ولا يزال الغجر يطوفون السهول بلا انتهاء.

وعند ظهيرة اليوم التالى- التاسع والعشرين من يناير- طلب **مرآة**، وراح يتأمل ملامح وجهه طويلاً.. ها هو يودع صورته **الإنسانية**، يودع هذا الجسد، وهذا الشعر، وهاتين العينين، وقد **كانت جميعًا** له. وهو الآن ينحسر عنها فى نعومة.

وتجثو زوجته عند سريره، تطعمه بضع ملاعق من الخوخ **المعقود**، فيمضغها على مهل بجدية ورصانة.. ما أطيب ذلك! إنه **يذكره** بطفولته، و"إرينا روديونوفنا" مربيته، والأشجار الكبيرة، **والأطعمة** الشهية. وأسندت "ناتالى" وجنتها على جبين زوجها، فراح "**بوشكين**" يلاطف شعرها بيد ثقيلة: "حسنًا!.. حسنًا!.. لا بأس. كل **شىء** سينتهى على خير". لم يتبق من العالم شىء بالنسبة له، سوى **مذاق** هذا الخوخ المعقود، ورائحة الأدوية المنتشرة فى الغرفة. وعندما يتلاشى ذلك المذاق وتلك الرائحة، فإنه الموت إذًا. وها هو يترنح الآن خارج السرير على أمواج الكتب وحروف الطباعة، وأشعار تدوى فى أذنيه، فلماذا..؟ لماذا.. القيصر والبلاط و"بنكندورف" و"النيقا" و"ناتالى" و"دانتس" و"هيكرن"، والشرف، والرسائل، والدم.. هذا الدم الذى يصعد الآن إلى حلقه ويخنقه..؟

تراخى جسده، وصار تنفسه منتظمًا، وازداد وجهه شحوبًا وأطرافه برودة. انحنت رأسه قليلاً، وتراخت يداه، بعد أن كانتا

فريسةً للاختلاجات العصبية. كان يبدو جديدًا ومألوفًا فى نفس الوقت. وما كان يُعبِّر عن النعاس ولا عن الراحة، ما كان يُعبِّر عن الذكاء ولا حتى الإشراق الشعرى؛ كلاًّ، بل إن فكرةً عميقةً، مدهشةً، قد انتشرت فى ملامحه، كأنها شارة معرفة غريبة، راضية.

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والخامسة والأربعين، من بعد ظُهر ٢٩ يناير ١٨٣٧.

٢

أَلاَ اعْلَمُوا الآنَ، أَيُّهَا الْمُلُوك
إِنَّ شَيْئًا لَن يَسْتَطِيعَ حِمَايَتَكُم بَعْدَ اليَوْم
لاَ العُقُوبَات، وَلاَ المُكَافَآت،
لاَ مَذَابِحَ الهَيَاكِلِ، وَلاَ السُّجُون.

١

"كان مصيرٌ رهيبٌ كئيبٌ ينتظر عندنا كل شخص يتجرأ ويرفع راسه إلى مستوى أعلى مما خطَّه له الصولجان الإمبراطورى، سواء كان شاعرًا، أو مواطنًا، أو مفكِّرًا. كان مصيرٌ لا يرحم يدفعهم جميعًا إلى القبر"(١).

وكان أمرًا معتادًا أن يلعب المالك العقارى القمار على مصير فلاحه بدلاً من النقود، أو يبادل الفلاح بكلب؛ فلم يكن الفلاح الروسى يتمتع بغير حقوق الميت. كما كان معتادًا أن نقرأ - فى إحدى الجرائد - أنه "فى القسم الخامس عشر من الحى الثانى، فى شارع "ميشاسكايا" الرابع رقم ١١، تُباع فتاة تجيد خياطة الملابس الداخلية والكَى والتنشية، كما تجيد طبخ الطعام، ويُباع خياط. وفى

---

(١) «هيرزن»، انظر التعريف فى «الأعلام» بنهاية الكتاب.

نفس المكان، تُعرض مجوهرات وأحجار ملونة وثور وبقرة أصيلان بسعر مناسب"(١).

٢

فمنذ منتصف القرن الثامن عشر، كان نظام القنانة قد بدأ فى الانحلال، وبدأت العلاقات الجديدة- الرأسمالية- تنمو فى صلبه.

كانت طبقة النبلاء هى الطبقة المسيطرة؛ إذ تملك أهم ثروة فى البلاد: الأرض. وكان أكثر من نصف الفلاحين مملوكين للمُلاك العقاريين، الذى يتصرفون بأشخاص الأقنان بحرية مطلقة. أما القسم الباقى من الفلاحين، فكانوا فى التبعية الإقطاعية للدولة، وأُطلق عليهم "الفلاحون الحكوميون". ولعبت القيصرية دورًا مهمًا فى الإبقاء والدفاع عن مصالح وامتيازات النبالة، والحفاظ على أسس نظام القنانة، فيما كان قد توطد أسلوب الإنتاج الرأسمالى، والعلاقات الاجتماعية البرجوازية، فى بلدان أوروبا الغربية.

ولهذا، شهدت هذه الفترة الانتقالية- فى روسيا- أهوال المخاض الأليم، التى كشفت فيها النبالة والقيصرية عن آخر أنيابهما تشبثًا

(١) «أحد إعلانات جريدة «موسكو فيدوموستى»، عام ١٧٩٧.

بالبقاء. كما شهدت الملاحقة والقمع الشديدين لكل بادرة تمرد. وتعرض الأدب الروسى للاضطهاد والمطاردة، وفُرضت مراقبة صارمة على المطبوعات؛ فكان كل مؤلَّف يمر على رقيبين أو ثلاثة، يشطبون كل ما يخيَّل إليهم أنه مشكوكٌ فيه. وكان الرقباء مهددين بالسجن والطرد من الخدمة، إذا ما مرت مقالة "مشاغبة".

٣

كان الاستياء يتعاظم فى كل مكان مع تزايد الاضطهاد. وانتشرت الانتفاضات الشعبية فى أنحاء روسيا، وكان أخطرها الحرب الفلاحية عام ١٧٧٣ بقيادة "بوجاتشوف". فقد شملت الانتفاضة- وهى أقوى حركة معادية للإقطاع فى تاريخ روسيا- مساحات هائلةً من الدون ويايك حتى الأورال وأعالى الڤولجا وكاما. ومنح "بوجاتشوف" الفلاحين والقوزاق- فى المناطق المحررة- "الحرية الدائمة" و"الأرض والعشب والمرتبات النقدية والرصاص والبارود والخبز".

وهزت الانتفاضة كيان القيصرية ونظام القنانة حتى الجذور، برغم أنها انتهت بالهزيمة والتنكيل الدموى، لكونها تعبيرًا عن الاحتجاج العفوى للجماهير المسحوقة المفتقرة إلى الوعى السياسى.

وعلى إثر الانتفاضة، ضاعفت القيصرية من توجهها الرجعى وإجراءات الإرهاب، والقوانين التى تؤكد جميع الحقوق والامتيازات للنبالة، لكن...

٤

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، بدأ فى روسيا نشاط المُنوِّرين البارزين، الذين دافعوا عن مصالح الجماهير الشعبية فى مواجهة القنانة. ففضح "نوفيكوف" قسوة نظام القنانة، وأوضح كيف أن كل ثروات الأرض هى نتاج عمل الفلاحين. وقد تعرف القراء الروس- عن طريق مطبوعات "نوفيكوف"- لأول مرة على مؤلفات "شيكسبير" و"ثيرفانتيس" و"موليير" و"بومارشيه"؛ كما تعرفوا على منورى القرن الثامن عشر الفرنسيين: "ڤولتير" و"ديدرو" و"روسُّو".

أما "راديشييف"، فكان أول من دعا فى التاريخ الروسى إلى القضاء على عبودية الأقنان والحكم المطلق وإقامة الجمهورية فى روسيا. ولعب كتابه "رحلة من بطرسبرج إلى موسكو" وقصيدته "الحرية"- التى دعا فيها الشعب إلى الثورة والانتقام من القيصر- وغيرهما من مؤلفاته دوراً بالغ الأهمية فى تكوين الأيديولوجيا المعادية للقنانة وتطور الأفكار الاجتماعية فى روسيا.

٥

وادت حرب ١٨١٢ دورًا رئيسيًا فى يقظة الوعى القومى. فقد وحدت المقاومة والدفاع عن الأرض فى مواجهة الغزو النابليونى كل الجماهير الروسية، بما أسهم فى تشكيل وعى الجماهير بنفسها واوضاع اضطهادها.

٦

وفى ١٤ ديسمبر ١٨٢٥، كانت انتفاضة الديسمبريين. كان الديسمبريون أوائل الثوريين الروس الذين أسسوا تنظيمات سرية، ونظموا انتفاضةً ثوريةً سافرةً ضد القيصرية. لقد رأوا منذ الطفولة أهوال نظام القنانة، ولعبت أفكار التنوير الروسية، واطلاعهم على أعمال منوِّرى القرن الثامن عشر الفرنسيين وآداب اوروبا الغربية، دورًا كبيرًا فى تكوين نظريتهم.

وقد حدثت الانتفاضة عقب موت "الكسندر الأول"، وفور اعتلاء "نيقولا الأول" العرش فى "سانت بطرسبرج". وتجمع فى ساحة مجلس السينات حوالى ثلاثة آلاف جندى وبحَّار، لمنع أعضاء مجلس السينات ومجلس الدولة[1] من أداء اليمين للإمبراطور

---

(١) مجلس السينات ومجلس الدولة هما أعلى هيئتين فى الإمبراطورية.

الجديد، وإرغامهم على التوقيع على البيان الذى أعدوه لتوجيهه إلى الشعب.

وفى بيانهم، طرح الديسمبريون برنامجًا هو من أكثر البرامج تقدميةً فى ذلك الوقت؛ برنامج إصلاح شامل لكل النظام الاجتماعى: إلغاء الحكم السابق، وحرية النشر وإلغاء الرقابة، وحرية ممارسة كافة الأديان، وإلغاء حق الملكية فيما يخص البشر، وتساوى كافة الفئات أمام القانون، وعلنية المحاكمات، إلخ.

وقد سُحقت الانتفاضة، كما سُحقت الانتفاضة التى هبت فى أوكرانيا بعد ذلك بأسبوعين. ونكل النظام القيصرى بالديسمبريين بوحشية؛ فحُكم على خمسة منهم بالإعدام، وأكثر من مائة بالأشغال الشاقة والنفى إلى سيبيريا.

وهكذا فشلت الانتفاضة، ذلك أن الغالبية العظمَى من النبلاء- بحكم مصالحها- كانت تقف فى صف "نيقولا الأول"؛ كما أن الديسمبريين كانوا عاجزين عن تحقيق أى ارتباط حقيقى بمن قاموا من أجلهم، برغم أن برنامجهم كان يمثل طموحات وأحلام الشعب.

٧

ظل الاتجاه الكلاسيكى مسيطرًا على المفهوم الجمالى الروسى زمنًا طويلاً، وكان ذا تأثير قوى على تطور الثقافة الروسية، وخصوصًا فى أواسط القرن الثامن عشر. ولكن فى النصف الثانى منه، بدأت الكلاسيكية تعجز عن الإجابة على متطلبات تطور الفكر الاجتماعى والفعاليات الفنية، وتعرضت- بالتالى- للانتقاد الشديد وإعادة النظر من قِبَل ممثلى المفهوم الجمالى الجديد.

وقد تميز الاتجاه الكلاسيكى الروسى باهتمامه بمسألة تشكيل لغة أدبية روسية، كما شغلت مسألة الدور التربوى للفن- أو دوره الأخلاقى التربوى، بمعنًى أدق- مكانةً مهمة فى المفهوم الجمالى الروسى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.. زمن الانتفاضات الفلاحية و"بوجاتشوف". فقد اتجه الفكر الجمالى الروسى- فى بحثه هذه المسألة- إلى توضيح الترابط الداخلى بين المفهوم الجمالى والأخلاقى، واستخدام الوسيلة الجمالية للتأثير على أخلاق الفرد. واتجه هذا الفكر- من ناحية أخرى- إلى بحث كيفية التوصل إلى أكبر التأثيرات العملية لإبراز فعاليات الفن الأخلاقية التربوية. وربط "راديشييف"- لأول مرة فى تاريخ الفكر الجمالى الروسى- بين هذه المسائل وبين الأفكار التحررية والثورية.

٨

ووقع الأدب فيما قبل "بوشكين" - بصورة كبيرة- تحت تأثير الكلاسيكية، وأوقف اهتمامه الأكبر على تقليد الآداب القديمة، بما فرض استخدام لغة مصطنعة كئيبة متعالية. وإذ كرس الأدب الروسى نفسه من أجل الأرستقراطية الحاكمة وتسليتها، فقد كان محتمًا عليه الهروب من معطيات الحياة الواقعية المعاصرة، باضطرابها وصراعاتها الدموية، واللجوء إلى التلفيق والافتعال.

أما الشعر الروسى الحديث، فقد بدأ على يدَى "ميخائيل لومونوسوف" (١٧١١-١٧٦٥) الابن البكر لانفتاح روسيا على أوروبا، والممثل الحقيقى لعصر التنوير الروسى. ولعبت مؤلفاته دورًا رائدًا فى تطوير اللغة الروسية. وكان كتابه "قواعد اللغة الروسية" أول كتاب علمى لنحو اللغة الروسية، أما رسالته عن أصول نظم الشعر الروسى، فقد وضعت أسس إصلاح نَظم الشعر الروسى.

ويُعد "ميخائيل درجافين" (١٧٤٣-١٨١٦) المؤسس العظيم للكلاسيكية الروسية فى الشعر. فقصائده عن انتصارات الجيش الروسى تفيض بروح الوطنية وثراء اللغة وتعبيريتها. وسخرت أشعار "درجافين" من أخلاق رجال الحاشية، وفضح الأرستقراطيين والوجهاء المتبطلين.

ومع "نيقولا كارامزين" (١٧٦٦-١٨٢٦) و"جوكوفسكى" (١٧٨٣-١٨٥٢)، ظهرت بدايات التحول إلى حساسية جديدة فى الشعر، وبداية الصراع ضد الكلاسيكية التى كانت تعانى من الذبول. ومع هذا الجيل من الشعراء، دخلت الرومانسية حركة الشعر الروسى، ومعها بدأ الفرد وحياته الداخلية يعرفان الطريق إلى القصيدة الروسية. وحاربت الرومانسية القواعد المصطنعة للشعر التى ارستها الكلاسيكية، لكنها عجزت عن خلق أدب شعبى واقعى، ذلك ان ما اهتمت به كان "إنسان الأرستقراطية".

٣

أُرِيدُ أَن أُغَنِّى الحُرِّيَّة

وَأَفْضَحُ الشَّرَّ المُتَرَبِّعَ عَلَى العُرُوش.

١

وسط هـذه الـعـواصف الـتى كـانت تـهـز المجـتـمع الـروسى من الجذور، وُلـد "الـكسـنـدر سيـرجـيـڤـيتش بـوشـكـين" فـى الـسـادس والعشرين من مايو ١٧٩٩ فى موسكو. كان والده "سيـرجى لِڤُوڤيتش بوشكين" ينتمى إلى أسرة عريقة من طبقة النبلاء، إلاَّ أن أسرته فقدت- فى حوالى الفترة التى وُلد فيها- عِزها ونفوذها السابقين. وهكذا تركت الأسرة أمر تربية "ساشا" الصغير إلى الخدم والمربين الأجانب. وتكفل تعليمه الفرنسى بإدخاله- وهو بَعد صبىٌّ صغير فى الحادية عشرة- إلى عالم الكلاسيكيين الفرنسيين وموسوعيِّى القرن الثامن عشر.

أما مربيته القِنَّة "إرينا روديونوڤنا"، فتكفلت بأن ينسل إلى ذلك العالم الباهر السحرى: عالم الخيال والقصص الشعبى والأساطير

والأغانى القديمة؛ هذا العالم الغامض الذى يفيض بالينابيع الحية، وطيران الساحرات، والقصور الممتلئة بالنوافذ، الموشاة بالهياكل العظمية المتكلسة والرماح الصدئة. وطاف الوصيف "نيكيتا كوزلوف" به شوارع موسكو وأحياءها، والأعياد الشعبية، حيث الممثلين والأقنعة المزيفة والشعور المستعارة والتهريج الروسى وضحكات الجمهور العريضة، وحيث الحياة ولغة الشارع التى كاد أن ينساها فى صالونات أبيه الأرستقراطية.

٢

التحق بمدرسة الليسيه المخصصة لذوى الامتيازات الطبقية. وتوطدت العلاقات الحميمة بينه وبين كثير من الطلبة، ممن أصبحوا- فيما بعد- "ديسمبريين". ونمت موهبة "بوشكين" الأدبية، وتطورت بفضل اطلاعه على كلاسيكيات الأدب الأوروبى والروسى المعاصر، وبفضل بيئة الليسيه التى كانت تموج فيها الاهتمامات الأدبية. وشارك "بوشكين" بشكل نشط فى الجدالات الأدبية التى ثارت فى ذلك الوقت. وفى مواجهة جمعية "المائدة المستديرة لمحبى الآداب الروسية"- التى توحدت فيها القوى الأدبية الرجعية لمقاومة إصلاح اللغة الأدبية- انضم "بوشكين" إلى جمعية "إرزاماس" التى

ضمت أنصار المبادئ التقدمية الجديدة فى الأدب. وقد مهد نشاط "إرزاماس" الأرض للواقعية الروسية فى الأدب.

أما تقييمات مدرسى الليسيه لمواهب "بوشكين"، فلم تخل من تقرير أنه "كسولٌ جدًا، غير منتبه فى الفصل، غير متواضع، ذو قدرات إلى حدٍّ ما، ذكى- وهذا هو الأسوأ- فى الثرثرة الفارغة، يحقق تقدمًا ضعيفًا جدًا".

٣

عُين "بوشكين"- بعد تخرجه من الليسيه- بوزارة الشئون الخارجية. وخلال الفترة التى قضاها فى سانت بطرسبرج، كرس كل وقته للمشاركة فى الحياة الاجتماعية والأدبية الصاخبة فى العاصمة. وانضم إلى جمعية "المصباح الأخضر" الأدبية التى نظمها الديسمبريون لنشر أفكارهم، بعد أن انهارت جمعية "إرزاماس".

وكانت قصائد بوشكين- فى هذه الفترة- تبشيرًا بمُثُل الديسمبريين- دون المشاركة فى تنظيماتهم- فى إدانة الأُوتوقراطية ونظام القنانة، والدعوة إلى الانتفاضة، وتقويض أسس الظلم السائد. ففى ١٨١٧ كتب قصيدته "أغنية إلى الحرية":

آهِ فَلْتَهْتَزُّوا وَلتَرْتَجِفُوا يَا طُغَاةَ الْعَالَم
وَأَنْتُم أَرْهِفُوا السَّمْعَ أَيُّهَا الْعَبِيدُ السَّاقِطُون
تَسَلَّحُوا بِالشَّجَاعَةِ، وَهُبُّوا.

وكان للقصائد والأقوال الساخرة، التى انتقد فيها بوشكين الأوتوقراطية ونظام القنانة، وتغنت بالحرية- والتى كُتبت منها مئات وآلاف النسخ بخط اليد- كان لها نفس تأثير بيانات الديسمبريين السياسية، بل استخدمها الديسمبريون أنفسهم لنشر آرائهم بصورة واسعة.

وخلال نفس الفترة أنهى بوشكين أول مؤلَّف أدبى كبير له، هو "روسلان ولودميلا"، ملحمة شعرية أكدت ازدياد استقلاله الأدبى، وكانت أولى القذائف التى أطلقتها واقعية بوشكين المقبلة. وأثارت الملحمة الهياج بين المؤيدين والحانقين، بروحها الأسطورية المعتمدة على قصص الجنيات، ولغتها غير العادية فى دقتها وبساطتها، بالمقارنة مع لغة الشعر السائدة، الثقيلة.

ولم تكن قصائد بوشكين، ولا تعليقاته، لتمر دون عقاب. فقد استدعاه الحاكم العسكرى لسانت بطرسبرج. وبعد الاستجوابات، ومن خلال دفاع صديقيه "كارامزين" و"جوكوفسكى" ذوى النفوذ،

تقرر الاكتفاء بنفيه إلى الجنوب تحت مراقبة الجنرال "إينزوف"- المشرف على المستعمرات العسكرية فى الجنوب- بدلاً من نفيه إلى سيبيريا.

ويغادر بوشكين سانت بطرسبرج إلى إيكاتيرينوسلاف فى الجنوب فى ٦ مايو ١٨٢٠.

٤

وجاب الجنوب مع أسرة الجنرال "راييفسكى"- بعد استئذان الجنرال "إينزوف"- التى عثرت عليه فى كوخ متهدم متداعٍ مصابًا بالبرد والحُمَّى وحيدًا.

وفى القِرم بدأ فى التعرف- مع أبناء "راييفسكى"- على أعمال الشاعر الإنجليزى "بايرون"، الذى ذاعت شهرته فى أوروبا فى ذلك الحين. ولم يلبث أن ارتحل إلى "بيسارابيا"، وطاف سهولها مع إحدى القبائل الغجرية.

وفى منفاه الجنوبى تعرف بوشكين وازداد احتكاكه بالديسمبريين، إلاَّ أنهم أخفوا عنه حقيقة وجود تنظيم لهم.

تابع بوشكين باهتمام شديد الأحداث الأوروبية التى كانت تناقش بحماس بين أصدقائه الديسمبريين: الحركات الثورية فى ألمانيا

وفرنسا وأسبانيا، بل وروسيا ١٨٢٠. وبلغت إيقاعات الثورة- التى رددتها قصائده- درجةً عاليةً من الرفعة والحدة؛ فقد كان ينتظر بحماس اندلاع ثورة ظافرة.

وانتقل إلى "أوديسًّا" للعمل تحت إمرة الكونت "فورونتزوف"، الحاكم العسكرى الجديد. وردًا على اضطهاد "فورونتزوف" له، كتب عدة أبيات شعرية تسخر منه، فطلب الحاكم العسكرى نقله من "أوديسًّا". وفى نفس الوقت، ضبطت السلطات خطابًا له ينكر فيه وجود الله وخلود الروح، فأمر "الكسندر الأول" بطرده من الخدمة الحكومية، ونفيه إلى قرية "ميخايلوفسكوى" ليصبح تحت رقابة السلطات المدنية والكهنوتية.

وأثناء إقامته بمنفاه الجنوبى، كتب بوشكين "سجين القوقاز" و"نافورة بختشيساراى"، وأنجز معظم "الغجر"، وبدأ "يوجين أونيجين"، وأنهَى "جافريليادا"، بالإضافة إلى العديد من القصائد الغنائية.

ويغادر بوشكين أوديسًّا فى ٣٠ يوليو ١٨٢٤ إلى منفاه الجديد.

٥

عاش فى "ميخايلوفسكوى" حياةً متفردة. وأبدى اهتمامًا كبيرًا بالفولكلور وطريقة حياة العامة، وأصغى بابتهاج إلى القصص

الشعبية، وكان يزور الأسواق وأضرحة القديسين، ويتحاور مع الفلاحين.

وفى منفاه الجديد أنهَى "الغجر" و"بوريس جودونوف" و"الكونت نيلين"، وأضاف أربعة فصول أخرى إلى "يوجين أونيجين". وحين سُحقت انتفاضة الديسمبريين، ونكل "نيقولا الأول" بهم شنقًا ونفيًا إلى سيبيريا، أصابته الصدمة الهائلة، "فالشنق هو الشنق، أما الأشغال الشاقة لمائة وعشرين صديقًا، لمائة وعشرين أخًا ورفيقًا فهو أمرٌ فظيع".

وأصبح واضحًا لدى الحكومة أن شِعر بوشكين قد لعب دورًا تحريضيًا كبيرًا فى الحركة الديسمبرية. لكنها لم تجد فى أوراقهم السرية سوى قصائده فحسب. ولم يجد "بوشنياك"- رجل البوليس السرى الذى أرسلته الحكومة للتجسس عليه- أى دليل على مؤامرة أو تمرد أعده بوشكين. وقرر "نيقولا الأول" ألاَّ يحاكمه، ولكنه عزم على اتباع أسلوب مختلف.

وفى ١٤ سبتمبر ١٨٢٦، أُحضر بوشكين على عجل إلى موسكو، إلى القيصر.

٦

قابل القيصر بوشكين بوُد زائف. وسأله عمًّا كان سيفعله فيما لو كان موجودًا فى سانت بطرسبرج في ١٤ ديسمبر، فأجاب بوشكين بلا تردد: "كنت انضممتُ إلى صفوف المتمردين". وأعلن القيصر له أنه سيأخذ على عاتقه شخصيًا مهمة مراقبة أعماله. واضطُر بوشكين إزاء ذلك- فى بعض الأحيان- إلى أن ينشر أعماله باسم مستعار أو دون توقيع.

واستمر القيصر على عدم ثقته به، رغم تعهده له بأن يسلك نحو الحكومة مسلكًا مواليًا؛ فاستُجوب بوشكين عدة مرات على قصيدته "أندريه شينييه"، للشك فيما حوته من تعبيرات تشير إلى التعاطف مع الديسمبريين، وانتقاد العقاب الذى أنزله القيصر بهم. ووُضع أخيرًا تحت رقابة البوليس السرى.

لم يكن لبوشكين الحق فى الانتقال من مكان إلى آخر دون تصريح من "بنكندورف"، واضطُر إلى توقيع تعهد كتابى بعدم قراءة أعماله الجديدة على أى شخص قبل مرورها على الرقابة. بل لم يكن فى مقدوره أن يتزوج دون إذن من القيصر والشرطة.

وفى ربيع ١٨٣٠، قبلت "ناتالى جونشاروفا" وعائلتها طلب بوشكين الزواج بها. واضطُر بوشكين للتوجه إلى القيصر للحصول

منه على الموافقة على زواجه، فتلقى الموافقة مقرونة بأنواع جارحة من التوبيخ والتحذيرات المتغطرسة والأكاذيب.

وفى هذه الفترة، أسهم بوشكين بنشاط واسع فى الإشراف على "الجريدة الأدبية" التى كان يصدرها صديقه الشاعر "دلفيج".

٧

أقام بوشكين فى سانت بطرسبرج بعد الزواج. وأدرجه "نيقولا الأول" فى سلك موظفى الحكومة مرةً أخرى؛ فقد كان يريد أن تتردد "ناتالى"- زوجة بوشكين الفاتنة- على البلاط القيصرى. ولم يسمح له القيصر بمغادرة المدينة.

وخلال السنوات القليلة التى أعقبت زواجه، كتب بوشكين مؤلَّفًا تاريخيًا عن تمرد "بوجاتشوف" بعنوان "تاريخ بوجاتشوف"، ورواية "دوبروفسكى" و"الفارس البرونزى" و"ملكة البستونى".

ولم يوافق القيصر على نشر "الفارس البرونزى"، واعتبر وصف تمرد "يفجينى" وتهديداته للفارس البرونزى- بطرس الأكبر- "أمورًا غير مسموح بها".

٨

وفى عشية رأس السنة الجديدة ١٨٣٤، أنعم القيصر عليه برتبة "نبيل من نبلاء الحضرة القيصرية"، مستهدفًا إذلاله من ناحية لأنها كانت تُمنح لشبان الأرستقراطية الصغار- ومنح زوجته الحق فى التردد على بلاط القيصرية بحرية، من ناحية أخرى.

وازداد اضطهاد الحكومة الذى لا يُحتمل. وفقد حرية تبادل الخطابات مع زوجته: "لم أكتب إليكِ، لأن تصرف سلطات البريد- الذى لا يخرج عن كونه تصرف خنازير- نفَّرنى من الكتابة لدرجة جعلتنى لا أستطيع أن أمسك بالقلم فى يدى".

وفى أواخر يونيو ١٨٣٤، قدم طلبًا للتقاعد، لكنه اضطُر- تحت التهديد- إلى سحبه. وظل مقيدًا فى سانت بطرسبرج. وازداد اضطهاده، وشدد النقاد والصحافة الحكوميون تهجماتهم عليه.

وكانت أحواله المالية قد تفاقمت، فقد وصلت ديونه إلى ستين ألف روبل، وكان عليه أن يتحمل عبء إعالة أطفاله الأربعة واثنتين من شقيقات زوجته وشقيقته، والمساهمة فى معونة والديه، فضلاً عن النفقات التى تتطلبها رتبته فى البلاط وزوجته. ولم يستطع مواصلة الكتابة.

لكنه استطاع- رغم كل ذلك- إصدار مجلة "المعاصر" ١٨٣٥، ونشر فيها أعماله ومذكراته، وكان أحد الأوائل الذين تنبهوا لعبقرية جوجول" القادمة، وشجعوه.

٩

ضيقت حلقة الشائعات المبتذلة خناقها حوله. وعقب استلام احد الخطابات التى تُعرِّض بالعلاقة بين زوجته والقيصر- والخالى من التوقيع- أرسل إلى "دانتِس"، وهو مهاجر فرنسى يعمل ضابطًا بالحرس الإمبراطورى الروسى، يطلبه للمبارزة. وخروجًا من المأزق، تقدم "دانتِس" بطلب الزواج من شقيقة بوشكين، حتى يصبح أكثر اقترابًا من زوجة بوشكين التى لاحقها طويلاً.

واستأنف المجتمع "الراقى" تلطيخ سُمعة بوشكين بأوحال النميمة، فأرسل خطابًا مهينًا إلى "هيكرِن"- السفير الهولندى فى سانت بطرسبرج الذى يتبنَّى "دانتِس"- سُدت به جميع سُبل التراجع. وقبل "دانتِس" التحدى.

وقُتل بوشكين.

١٠

صدرت الأوامر بأن يُدفن جثمان بوشكين سرًا. فسُحب النعش- وبه جثمان الشاعر- فى زحافة عادية، وفى حراسة أحد جنود الشرطة، يصحبه صديق واحد، ليُدفن فى مدافن دير "سفياتوجورسكوى"، بالقرب من "ميخايلوفسكوى".

٤

النُّصُبُ الذِى أَقَمْتُه لَم تَبْنِه الأَيْدِى
وَسَتَحْفَظُ عَامَّةُ الشَّعْبِ الطَّرِيقَ مُمَهَّدًا
إلَى حَيْثُ يَنْتَصِبُ شَاهِقًا مُتَحَرِّرًا
أَكْثَرَ سُمُوقًا مِن نُصُبِ الكسَنْدَر.

١

والآن.. فيم تكمن أهمية بوشكين والإبداعات التى قدمها؟

يمكننا أن نعود- فى ذلك- إلى "بيلينسكى" حين قرر أنه "لم يكن لدينا قبله مجرد تحسس لما يمكن أن يكون عليه الفن.. كما لم يكن لدينا أدب، مجرد أدب! لقد كان بوشكين مدعوًا ليكون كشفًا حيًا عن أسرار هذا الأدب فى روسيا. ولما كانت مهمته هى تمهيد الأرض الروسية وإعدادها إلى الأبد لأدب فنى، بحيث يملك الأدب الروسى فيما بعد إمكانية التعبير عن أى اتجاه وأى تأمل دون أن يخشى الخروج عن حظيرة الأدب.. لهذا كله، فمن الطبيعى أن يصبح بوشكين فنانًا بصورة استثنائية".

ويؤكد "لوناتشارسكى": "إن ما فعله دانتى وبترارك من أجل إيطاليا وعمالقة القرن السابع عشر من أجل فرنسا، وليسنج وشيللر وجوته من أجل ألمانيا – قد فعله بوشكين لنا".

إن هذه الخصائص المتعلقة بعبقرية بوشكين هى التى أدت إلى اعتباره- وهو يخلق أدبًا كفن- ليس مجرد شاعر، بل وممثلاً للوعى الاجتماعى الذى أخذ يستيقظ لتوه.

لقد تغلب بوشكين- بفضل طاقات عبقريته الهائلة- على اللغة الأدبية للقرن الثامن عشر، والأسلوب المتعالى الشهير للشعر القديم، وخلق لغةً أدبيةً جديدة. كان الشعر الروسى- قبل بوشكين، وإلى درجة كبيرة- "غرسًا لنباتات منقولة من أرض أجنبية"، على حد تعبير "بيلينسكى"؛ فخلق بوشكين جميع متطلبات التعبير الشعرى عن أفكار الشعب وآرائه وأحاسيسه، فى نفس الوقت الذى خلق متطلبات التطور المقبل للثقافة الروسية.

٢

وكبديل عن الأدب الذى "يزين" الطبيعة والحياة، رأى "بوشكين" الجمال فى الطبيعة والحياة نفسيهما، ووعَى أن الحياة هى مصدر الأدب الحقيقى؛ وهنا تكمن- أيضًا- قوته وأهميته الكبرى فى تاريخ الأدب الروسى. لقد اكتشف الشعر الكامن فى الواقع، ورأى أن الأدب يصبح ممكنًا فحسب باعتباره أدب الواقع.

ومن هنا، كان أدبه غريبًا على كل ما هو حالم وكاذب ومثالى- ضبابى؛ إنه مشبعٌ حتى الأعماق بروح الواقع، لا يلطخ وجه الحياة بالمساحيق، بل يكشفها كما هى. ويقترن هذا التأكيد للحياة "الأرضية"- المنافية للتصورات المجردة والرومانتيكية الباهتة- بتفاؤل شجاع يليق بفارس أسطورى يشق رحم القنانة صوب الحرية. فقد وجه شعره فكرَ الشعب إلى تلك الأشياء التى يجب أن تشغله، كما صرف هذا الشعر فكر الشعب عن كل ما هو غامض وشبحى، وحلمى بصورة مرضية، وعن كل ما رأى فيه الشعراء- فيما مضى- مثال الجمال والكمال السامى.

٣

كان التراث الثقافى للشعب الروسى بكرًا لم يمتد إليه خيال شاعر من قبل: اللغة، والأساطير، والأغانى، ذكريات الانتفاضات الفلاحية العظيمة، تمثيليات المهرجين فى الشوارع، ألعاب الأطفال فى القرى البعيدة، والحلم الأبدى الذى يحلق فى السماء الروسية بالعدالة والحرية.

وكان مُقدرًا لبوشكين أن يكون أول من يفجر هذه الينابيع الثرية. فلم تعد اللغة الفخيمة سوى دليل على التعالى والعجرفة الممقوتة،

وحلت محلها لغة أقرب إلى لغة الشعب، بسيطة تختزن آلاف الصور، عذبة تتفجر بالموسيقى والسخونة، وأحيانًا قاطعة كالخنجر أو الطلقة.

وخرجت الأساطير والأغانى والأبطال الشعبيون من ذاكرة الشعب، لتسكن- على يد بوشكين- الشعر الروسى، الذى كان قلعةً حصينةً فى مواجهة كل ما هو "شعبى": أساطير الجنيات، أغانى الغجر فى السهول المترامية، الفرسان الذين تفور دماؤهم بعشق الحرية والعدالة والحب، والأهواء العارمة والأشواق المضطرمة التى تستلب الأرواح فتشعلها فروسيةً وطموحًا مجنونًا.

٤

وكان مَن امتلك الجرأة ليجعل من عواطف الإنسان "المغمور موضوعًا للشعر، الإنسان الذى لا يُعتبر استثناءً من القاعدة، بل القاعدة: "يفْجِينِى" فى "الفارس البرونزى"، الغجرى العجوز وابنته "زمفيرا" فى "الغجر"، "هيرمان" فى "ملكة البستونى"، وغيرهم.. مقدمًا معهم مرحلةً تاريخيةً كاملةً، يتبدى فيها المخاض الروسى للخروج من زمن القنانة.

وقد مكَّن تقديم الجانب التاريخى- بصورة ملموسة- بوشكين من جعل موقف أبطاله، تجاه المشاكل التى يواجهونها، إنسانيةً على

نحو عميق، ومن إعطائها تعبيرًا دراميًّا أخلاقيًا. فهو لم يكن بحاجة إلى اختلاق علاقات وعواطف تجريدية تهوِّم فى فضاء المطلق، بل إن الدوافع الإنسانية "الخاصة" (الحب والصداقة..إلخ) متقلصةٌ إلى ما لا غنًى عنه دراميًا. إنها مطروحة بشكل مكثف إلى درجة عالية، وفقط بقدر ما هى ضرورية كليًّا لوصف الشخصيات الرئيسية فى علاقاتها بمشاكل الحياة الشعبية.

وهذا السياق الاجتماعى الموضوعى، المصَوَّر تصويرًا واسعًا وعميقًا، هو الذى مكَّن الشخصيات من التجلى أمامنا بصورة مفعمة بالحيوية والحرارة، وبدون خلق أى انطباع بالافتعال والذهنية المجردة.

٥

ويحتل "الإنسان الزائد عن الحاجة" مساحةً كبيرةً فى أعمال بوشكين. إنه الإنسان الذى لا يرى معنىً للحياة، ولا يجد مبررًا للقيام بأى نشاط، ومع هذا يتميز بطموح غير مثمر للعمل، وبالأمل فى القيام بشىء ما نافع؛ لا يقوم به أبدًا. ولا يمل من البدء بهذا الشىء أو ذاك، إلاَّ أنه لا ينهيه أبدًا..!

هو بطلٌ رومانتيكى ذو طبائع باهرة، غير أنها تافهة فى جوهرها، لأنها أنانية. وأفكاره تبدو فى عينيه باعتبارها الحقيقة

الوحيدة، فقط لأنها أفكاره. وإذا ما أهينت مشاعره فى مسألة تتعلق بهوًى شخصى، فإنه يظن أن العالم كله قد أهين من خلال ذاته؛ وعندها فليست هناك وسيلة للانتقام يمكن أن تكون غير مشروعة.

ذلك هو "أَلِيكُو" ("الغجر"): فهو يفر من قيود المدينة إلى "حرية" الغجر. لكنه لا يرى- أو لا يريد أن يرى- سوى حريته هو فقط؛ وهنا يكمن مبرر سقوطه الدموى. لقد أنكر المدينة وفر منها، لكنه لم يُنكر أسس علاقاتها وأخلاقياتها الباطنة، فحملها معه وظل أسيرًا لها حتى لحظته الأخيرة. فهو يرى فى حبه لزمفيرا امتلاكًا لها، لا يقل جزاء الإفلات منه عن القتل. لكن الغجر لا يرون فى الحب سوى نزوة قلبية تفلت من ربقة سائر القواعد.. هو حريةٌ ولعبٌ ومصادفةٌ، وقوةٌ بدائيةٌ مستقلةٌ عن الخير والشر معًا.

وتقود هذه الحرية القصوى- بالتالى- إلى التسامح الأقصى. فليس ثمة محرمٌ ومباحٌ، وخيرٌ وشرٌّ، فى الحب الغجرى؛ إنما هى شهوة الإنسانية العارمة والحرية الإنسانية المطلقة.

لم يخرج "أَلِيكُو"- إذًا- عن قوانين وأخلاقيات العلاقات المدينية، بقتله لحبيبته، وأيضًا لم تخرج قبيلة الغجر- إزاء ذلك- عن قوانين وأخلاقيات العلاقات الغجرية؛ فليس ثمة انتقام، بل ترفع القبيلة

خيامها وتسير، تتابع التجوال اللانهائى فى السهول، مخلفةً وراءها عربةً مهجورةً وطائرًا مكسور الجناح لا يستطيع التحليق، إنه الرجل الذى خرج من زنزانة الحياة المدينية، لكنه لا يمتلك القوة ليُحرر نفسه منها.

٦

وفى "الفارس البرونزى"، كما فى "الغجر"، يقدم بوشكين "البطل غير البطولى": هذا الإنسان "العادى" الذى تتنازعه أفكاره وغرائزه وهمومه "الصغيرة"؛ هذا البطل "العام" الذى لا يحمل أفكارًا "ساميةً رفيعة"، ولا شخصيةً مهيبة، ولا أية سمة بطولية كلاسيكية؛ الأمر الذى حمل "جوكوفسكى" الكلاسيكى على أن يقول عنها: "أنا لا أعرف شيئًا أكمل من قصيدتك "الغجر" من حيث الأسلوب.. ولكن، ما هو هدفك يا صديقى العزيز؟ قُل ماذا تريد أن تبرهن ببطلك هذا؟ أية ذكرى تريد أن تترك للوطن عنك، الوطن الذى يحتاج إلى صور سامية؟"

٧

وحتى فى أيام "نيقولا الأول"، عندما وجدت نظرية "الفن للفن" فى بوشكين مدافعًا قويًا عنها، كان ذلك نوعًا من المقاومة لنظام القيصر الجيد.

فبعد هزيمة الديسمبريين، واختفاء القسم المتفوق من الشعب الروسى بعُلو تعليمه واتساع ثقافته من ميدان الحياة العلمية والثقافية، غدا كل شىء- كما يقول هيرزن- "يبابًا قفرًا، وتحولت كل حركة إلى صمتٍ رهيب. مجتمع تجرد من جميع صفات الرجولة ومميزات الإنسانية، تحجرت فيه القلوب بعد أن فقدت إنسانيتها وآمالها. مجتمع يقابَل فيه الاسترحام بالتهديد والتخويف والإذلال، ولم يبق فيه للإنسان سوى أن يقبل الإساءة فى صمت، أو يفر هاربًا من ذلك الجحيم".

ويكشف التقرير الذى رفعه "بنكندورف" رئيس البوليس والساعد الأيمن للقيصر عن بوشكين- من أنه "وغدٌ يصعب ترويضه، لكننا إذا ما نجحنا فى توجيه قلمه ولسانه، فسيكون أمرًا مفيدًا"- يكشف دلالة وضرورة التجاء بوشكين لنظرية "الفن للفن". وبنفس القدر تكشفها رسالة "جوكوفسكى"- شاعر البلاط المرموق- إلى بوشكين فى أبريل ١٨٢٦: "إن الشباب غدا اليوم ميالاً لأفكارك الثورية المكتسية إطار الشعر. لقد سببتَ للكثيرين أضرارًا كثيرةً لا تُحصَى، وهو ما يجب أن يجعلك ترتجف. الموهبة لا شىء، فالشىء الرئيسى هو العظمة الخلقية".

ولعل هذين المثالين يكشفان كيف أن شاعرًا كبوشكين- الذى لم يتجنب المعارك فى عهد "الكسندر الأول"، بل كان متلهفًا عليها- يثور

مُهمضًا هذه "العظمة الخلقية"، وينقلب مضطرًا للدفاع عن "الفن"، **ساخرًا** مزدريًا من طلبوا منه نظم القصائد لتأييد الأخلاق **الاجتماعية** السائدة:

اذهَبُوا، أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ!

مَاذَا يَهمُّ الشَّاعِرَ الآمِنَ مِن مَصِيرِكُم؟

اذْهَبُوا، وَانْغَمِسُوا بِوَقَاحَةٍ فِى الإِثم:

فَمَعَكُم لَن يَحْمِلَ الْغِنَاءُ أَيَّةَ قِيمَة.

وَإِزَاءَ أَفْعَالِكُم أُدِيرُ ظَهْرِى.

القصَائِد

النُّصُبُ الذى أَقمتُه...[*]

النُّصُبُ الذِى أَقَمْتُه لَم تَبْنِه الأَيْدِى

وَسَتَحْفَظُ عَامَّةُ الشَّعْبِ الطَّرِيقَ مُمَهَّدًا

إِلَى حَيْثُ يَنْتَصِبُ شَاهِقًا مُتَحَرِّرًا

أَكْثَرَ سُمُوقًا مِن نُصُبِ الكسَنْدَر.

لَن أَمُوتَ تَمَامًا- فَفِى قِيثَارَتِى المُقَدَّسَة

سَتُعَمِّرُ رُوحِى بَعدَ فَنَاءِ رُفَاتِى-

وَسَأَنَالُ التَّكرِيمَ، طَالَمَا ظَلَّت النَّارُ المَجِيدَة

(*) العناوين ذات *الخط المائل* ليست من وضع بوشكين، فهى - فى الأصل - قصائد بلا عناوين. وتم اختيار جملة من السطر الأول كعنوان، وفقًا للطريقة المعهودة فى هذا الصدد، والتى اعتمدتها الطبعة الروسية لأعمال بوشكين.

لِلشِّعرِ مُشتَعِلَةً فِى أدنَى مَكَان.

سَتَملأُ بَلَدِى الشَّاسِعَةَ كُلَّهَا الأحَادِيثُ عَنِّى،
وَسَتَنطِقُ اسمِى بِكُلِّ لِسَان.
الذرية السِّلاَفِيَّةُ الأبِيَّةُ، وَالفِنلَندِيَّةُ، والتُّونجُو
- غَيرُ المَكتُوبَة- وَالكَالمِيك عَاشِقَةُ السُّهُوب.

وَسَيُكَرِّمُنِى الشَّعبُ مَعَ ذَلِكَ طَوِيلاً
لأنَّ قِيثَارَتِى مَضبُوطَةٌ عَلَى حُبِّ المَوَدَّة
وَفِى عَصرٍ قَاسٍ، غَنَّيتُ الحُرِّيَّة
وَتَسَوَّلتُ الرَّحمَةَ مِن العَدَالَةِ فِى عَمَاهَا.

هَكَذَا، بِلاَ مُبَالاَةٍ بِالمَدِيحِ أو المَلاَم
لاَ يَعنِينِى، يَا رَبَّةَ الشِّعرِ، سِوَى الصَّوتِ الإلَهِى
بِلاَ خَوفٍ مِنَ الأذَى، بِلاَ سَعىٍ إلَى الشُّهرَة،
وَلاَ نَثرِ الدُّرِّ عَلَى الخَنَازِير.

١٨٣٦

إِلى شَادَايِيف

لَم تَخْدَعْنَا طَوِيلاً آمَالُ الشَّبَابِ الْفَارِغَة،

وَلاَ أَحْلاَمُه بِالْحُبِّ وَالشُّهْرَةِ الْمُتَبَاهِيَة.

لأحَقَتْنَا، بِاخْتِصَارٍ، خَاطِفَة،

وَمَرَّت كَمَا الضَّبَابِ، ثُم لاَ شَيْء.

لَكِنَّنَا مَا نَزَالُ ثَائِرِين، وَقُلُوبُنَا مُشْتَعِلَة،

تَحْتَ نِيرِ الاسْتِبْدَاد،

وَسَاهِرِينَ عَلَى شَكْوَى وَطَنِنَا،

وَشَوْقِهِ لِلْحُرِّيَّةِ بِكُلِّ الْحُمَّى،

بِالأَلَمِ الْخَفِيِّ وَاللَّهْفَة،

قَبْلَ أن تَسْتَنْزِفَ سَاعَةُ الْفَرَحِ الْمَوْعُودَة،

الْعَاشِقَ الصَّغِيرَ الْمُتَوَهِّجِ.

وَمَا دَامَت شُعْلَةُ الْحُرِّيَّةِ تَحْيَا فِينَا،

وَمَا دُمْنَا قَد سِرْنَا وَرَاءَ صَوْتِ الشَّرَف،

فَلْنَمْنَح رُوسيَا، يَا رِفَاق،

أَرْوَاحَنَا كَامِلَةً بِلاَ نُقْصَان.

أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْمُخْلِص:

السَّمَاءُ السَّاهِرَةُ تُبَشِّرُ بِفَجْرِ الْمُعْجِزَةِ-

لَسَوْفَ تَنْهَضُ رُوسيَا مِن نَوْمِهَا الطَّوِيل،

وَفِيمَا تُحَطِّمُ الطُّغْيَانَ، نَافِذَةَ الصَّبْر،

سَتَحْفُرُ أَسْمَاءَنَا عَلَى أَنْقَاضِه!

١٨١٨

أُمنيَـة

تَظَلُّ أيَّامِى مُتَوَانِيَةً، بَطِيئَةً وَقَاسِيَة

وَكُلُّ لَحظَةٍ تُضَاعِفُ الحُزن

فِى قَلبِ الحُبِّ سَىِّءِ الطَّالِع

مُبَعثِرَةً كُلَّ آمَالِ الجُنُون

وَأنَا صَامِت؛ لاَ ألفُظُ كَلِمَة.

أبكِى، دُمُوعِى- عَزَائِى

وَرُوحِى، أَسِيرَةَ الحُزن

تَظَلُّ تَعثُرُ عَلَى البَهجَة فِى هَذَا الإِحسَاس.

لَم أعُد أُبَالِى بِمَا إِذَا كَانَت الحَيَاةُ تَنقَضِى،

آه، سَرَابًا أَجوَفَ إِلَى ظَلاَمٍ هَارِب؛

فَالأَسَى عَلَى حُبِّى عَزِيزٌ عَلَىّ-

فَإِن كَانَ لِى أَن أَمُوتَ عَاشِقًا، فَأَرجُو أَن أَمَوت!

إلَى أ. ب. كيرن

يَا لَهَا مِن لَحظَةٍ مُدهِشَة
حِينَ تَجَلَّيتِ أمَامِى
كَحُلمٍ مُشرِقٍ خَاطِف،
كَلَمحَةٍ مِنَ الأُنُوثَةِ المُكتَمِلَة.

خِلاَلَ كُلِّ حُزنِ الحَيَاة،
كُلِّ اهتِيَاجِهَا المُزدَهِى لَكِن اليَائِسِ القَلِق،
انتَابَ رُوحِى وَجهُكِ الجَمِيل،
وَدَاعَبَ أُذنِى صَوتُك الحَنُون.

عَوَاصِفُ خَاطِفَةٌ، مُنفَجِرَةٌ- فَوقِى- مُغتَاظَةٌ،

بَعثَرَت أحلاَمَ الأوقَاتِ الخَالِيَة،

أَصبَحَت صُورَتُك ضَبَابِيَّةٌ، وَهىَ تَهجُرُ قَلبِى،

وَلَم يَعُد صَوتُكِ يُدَاعِبُ أُذُنِى.

فِى العُزلَةِ الكَئِيبَةِ البَارِدَة،

مَرَّت الأعوَامُ، الأعوَامُ الوَحِيدَة،

مَحرُومَةٌ مِن وَجهِ الله، مِنَ الطُّمُوح،

مَحرُومَةٌ مِنَ الحَيَاةِ، وَالحُبِّ، وَالدُّمُوع.

بَعدَئِذٍ- يَا لَلنِّعمة!- مُنتَصِرَةٌ عَلَى تَحلِيقِ الزَّمَن،

أَتَيتِ مِن جَدِيدٍ وَانتَصَبتِ أمَامِى،

كَرُؤيَا مُشرِقَةٍ خَاطِفَة،

كَحُلمٍ مِنَ الأُنُوثَةِ المُكتَمِلَة.

أفعَمَت قَلبِى نَشوَةٌ جَدِيدَة،

وَمِن جَدِيدٍ يَنتَابُه الشَّوقُ، مِن جَدِيدٍ تَنتَابُه المَهَابَة،

وَيَصحُو عَلَى الطُّمُوح،

يَصحُو عَلَى الحَيَاةِ، وَالحُبِّ، وَالدُّمُوع.

١٨٢٥

الأغنية الباخُوسيَّة

لِمَاذَا صَمَتَّ، يَا صَوتَ البَهجَة؟

فَلتَصدَحْ، أَغَانِى بَاخُوس رَاعِينَا!

أَلاَ فَلتَعِشنَّ، أَيَّتُهَا النِّسَاءُ وَالفَتَيَات!

أَيَّتُهَا الجَمِيلاَتُ اللاَّئِى مَنَحتُن الحُبَّ عَن إِرَادَة!

فَلتَشرَبُوا، يَا أَصدِقَاءُ، اشرَبُوا بِاستِمتَاعٍ وَتَلَذُّذ!

مِثلَمَا أَفعَلُ أَنَا نَفسِى،

وَفِى كُئُوسِ خَمرِكُم

فَلتُلقُوا بِلاَ مُبَالاَةٍ بِالخَاتمِ الذِى تُحِبُّون!

هَيَّا، فَلنُمسِك كُئُوسَنَا وَلنَرفَعهَا عَالِيًا!

المَجدُ لِلرَّبَّات! المَجدُ لِلعَقل! فَلنُسَبِّح بِحَمدِهَا!

وأنتِ، يَا شَمسَ العَبقَرِيَّةِ السَّاطِعَة، فَلتُشرِقِى!

فمِثلَمَا يُعتِمُ هَذَا القِندِيلُ العَتِيق

ويَذوِى مَعَ ضَوءِ الفَجرِ القَادِمِ،

هكَذَا تَشحُبُ الحِكمَةُ الزَّائِفَةُ مَع الوَمضَةِ النَّحِيلَةِ الأُولَى

لِلضَّوءِ الثَّابِتِ لِلحِكمَةِ الحَقِيقِيَّة.

فَليَعِش النَّهَارُ المُضِىء! وَليَمُت اللَّيلُ وَالظَّلَام!

١٨٢٥

إلَى...

لاَ تَسألنِى لِمَاذَا كَثِيرًا مَا يُفعِمُنِى الصِّرَاع
وَحِيدًا فِى تَفكِيرٍ كَئِيبٍ خِلاَلَ أوقَاتِ المَرَج،
وَلِمَاذَا تَحدِيقِىَ المُرهَقُ بَالِغُ التَّشوِيش،
وَلِمَ لاَ أستَمتِعُ بِحُلمِ الحَيَاة؛

لاَ تَسأَلنِى لِمَاذَا بَادَت رُوحِى بِبُطء
وَكَفَّت عَنِ حُبِّ الحُبِّ الذِى كَانَ يُمتِعُنِى آنَذَاك
وَلَم أعُد أستَطِيعُ أن أدعُو أحَدًا "عَزِيزِى"–
فَمَن أحَبَّ ذَاتَ مَرَّةٍ لَن يُحِبَّ مِن جَدِيد؛

وَمَن أحَسَّ مَرَّةً بِالنِّعمَةِ فَلَن يُحِسَّ بِجَوهَرِهَا أَبَدًا،

فَلَحظَةُ سَعَادَةٍ هِيَ كُلُّ مَا نَتَلَقَّى:

مِنَ الشَّبَابِ، وَالازدِهَارِ وَالْمُتعَةِ البَهِيجَةِ

وَكُلُّ مَا تَبَقَّى هُوَ الفُتُورُ وَالحُزن...

النَّبِى

ظَامِئًا قَلْبِى الْوَحِيد،

قَطَعْتُ الأَرَاضِى الْبُورَ الْقَاحِلَة

حِينَ وَجَدْتُه أَمَامِى، سَارُوفِيمَ الْمُجَنَّح،

صَامِتًا، مُنْتَصِبًا،

وَعَلَى مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ انْتَظَرَنِى.

عَلَى عُيُونِى الطِّينِيَّةِ الْعَمْيَاء

وَضَعَ أَصَابِعَه بِرِفْق،

وكَعَيْنَى نِسْرٍ عِنْدَ الرُّعْب،

فُتِحَتَا وَرَاقَبَتَا الأَرْضَ وَالسَّمَاء،

لَمَسَ أُذنِى، ثُم الأُخْرَى،

وواضحةً مُتميِّزةً تمامًا،

انثنى الرَّفرفةُ الرَّهيفةُ لأجْنحةِ الْملاَك،

فسمعتُ الْكرْمة

وهى تغُوصُ فِى الأرْضِ، وتَرْتفِعُ فِى السَّماء،

وهُولاَتِ أعْماقِ الْبَحْر

تنْزلِقُ فِى الْماءِ كالأسْماك..

اعْتَصرَ لِسانى الآثِمَ الْبَارِعَ مِن فمِى،

وانْتزَعه بِيدٍ دامِية،

مَالَ فوْقِى بِلاَ شفقة

ودسَّ نابَ أفْعى بيْنَ شفتىَّ الْهامِدتيْن..

ثُم- غارِسًا سيْفه اللاَّمِعَ بِبُطْءٍ-

شقَّ صدْرِى،

واقْتَلعَ قلْبِى الْمُرْتعِشَ الْمُعْتِمَ، الْكالِح،

وغرَسَ بِتثَاقُلٍ فِى الْفجْوةِ الْمفْتُوحة

جمْرةً، سرَت معَ اللَّهِيب..

رَقَدْتُ هُنَاكَ، مَيِّتًا،

وَإِلَهِي، تَكَلَّم يَا إِلَهِي،

وَهَذَا مَا قَال:

انْهَض أَيُّهَا الْحَكِيم، يَا مَن تَسْمَع دَعْوَتِي

افْعَل كَمَا أَطْلُب، يَا مَن يَعُوقُكَ الْعَدَم؛

تَقَدَّم عَلَى الأَرْضِ، نَبِيًّا، لاَفِحًا قُلُوبَ الرِّجَال

بِكَلِمَةِ الْحَق.

١٨٢٦

الوصيَّة العاشِرة

لا تَشتَهِ طَيِّبَاتِ الآخَرِين-

هَكَذَا أَمَرتَ، يَا إِلَهِي؛

وتَعرِفُ حُدُودَ إِرَادَتِي-

أعَلَيَّ أن أتَحَلَّى بِمَشَاعِرَ مُرهَفَة؟!

إنَّنِي لاَ أتَمَنَّى إِغضَابَ صَدِيقِي،

وَلاَ أشتَهِي قَرِيَتَه،

وَلاَ أتَطَلَّعُ إِلَى عِجلِه،

فَأنَا أنظُرُ إِلَيهِ بِعَينِ الرِّضَا:

لَم يُغوِنِي رِجَالُه، وَمَنزِلُه وَقَطِيعُه،

رَغمَ أنَّ كُلَّ شَيءٍ عَظِيم.

لَكِن فَلنَتَخَيَّل أنَّ جَارِيَتَه

جَمِيلَة.. إذًا فَقَد خَسرتُ المَعركَة!

وَإذَا مَا كَانَت امرَأتُه بِالمُصَادَفَةِ فَاتِنَة

وَتَتَمَتَّعُ بِبَشرَةِ مَلاَك

فَسَيَغفِرُ الرَّبُّ إذًا لِى خَطِيئَتِى

بِكَونِى حَسُودًا وَشَرِهًا!

فَمَن ذَا الذِى يَستَطِيعُ السَّيطَرَةَ عَلَى مِثلِ هَذَا القَلب؟

وَمَن يَكُونُ عَبدًا لِلمَسعَى الوَاهِى؟

وَمَن لاَ يُحِبُّ الشَّخصَ المُبَجَّل؟-

مَن يَملِكُ مُقَاوَمَةَ نِعمَةَ السَّمَاء؟

إنَّنِى أتَنَهَّدُ مِنَ الحُزنِ وَالوَعى،

لَكِن لاَبُدَّ لِى مِن تَشرِيفِ عَقِيدَتِى،

خَوفًا مِن إطرَاءِ طُمُوحِ القَلب،

صَامِتٌ أنَا.. وَوَحِيدًا يَنتَابُنِى الحُزن.

الشَّياطِين

مُدَوَّمَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة، مُنْدَفِعَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة،

السَّمَاوَاتُ غَائِمَةٌ، وَالْمَسَاءُ غَائِم،

وَقَمَرٌ مَاكِر

مَن يُشْعِلُ الضِّيَاءَ سِرًا فِى الثُّلُوجِ الطَّائِرَة.

فِى مَسِيرِنَا.. الامْتِدَادُ لاَ نِهَائِى،

تَنْزَلِقُ السُّهُولُ الْمَجْهُولَةُ وَالتِّلاَلُ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْوَرَاء.

وَمَشْحُونًا بِالْخَوْفِ أَجْلِسُ بِلاَ حِرَاك...

ترِن.. ترِن.. تَرِنُّ الأَجْرَاس.

"أَيُّهَا الْحُوذِى، هَيَّا، اسْتَيْقِظ.."

"الْخُيُولُ، يَا سَيِّدِى، مُرْهَقَةٌ، وَبَطِيئَة؛

أَمَّا أَنَا، فَأَنَا تَقْرِيبًا أَعْمَى

فِى هَذِهِ الرِّيحِ العَاصِفَةِ وَالثَّلْج!

لاَ طَرِيقَ أَرَاه أَمَامِى هُنَاك، لِذَا سَاعِدْنِى؛

مَا الْعَمَل؟.. ضَلَلْنَا طَرِيقَنَا.

إِنَّه الشَّيْطَانُ الذِى اسْتَوْلَى عَلَيْنَا

وَيَقُودُنَا إِلَى الضَّلاَل.

"انْظُر! هَا هُوَ يَمْرَحُ وَيَسْتَفِزُّ هُنَالِك،

يُزْبِدُ وَيَعْصِف، وَمُفْعَمًا بِالْحِقْد

يَدْفَعُ ضَاحِكًا حِصَانًا فَحْلاً

عَلَى حَافَّةِ أَحَدِ الْوِهَاد.

سَوْفَ يَطْلُعُ الآن، كَعَلاَمَةِ طَرِيقٍ عِمْلاَقَة،

قَائِمًا أَمَامِى؛

الآنَ، تَتَوَهَّجُ شَرَارَةٌ وَتُومِض،

والهبُ هَامِدَةٌ فَجْأَةً فِى الظَّلاَم".

مُدَوِّمَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة، مُنْدَفِعَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة،

السَّمَاوَاتُ غَائِمَةٌ، وَالْمَسَاءُ غَائِم،

وقَمَرٌ مَاكِر

مَن يُشْعِلُ الضِّيَاءَ سِرًا فِى الثُّلُوجِ الطَّائِرَة.

مُنْهَكَةً مِنَ الالْتِفَافِ الدَّائِرِى،

تَرْتَجُّ الْخُيُولُ وَتَتَوَقَّف.. وَتَمُوتُ الأجْرَاس.

"أهوَ جِذْعُ شَجَرَةٍ أم ذِئب؟"

"فَخَامَتكُم، لاَ أَسْتَطِيعُ حَقًا رُؤْيَةَ مَا أَمَامِى"

عَالِيًا تَنْتَحِبُ الْعَاصِفَةُ الثَّلْجِيَّةُ، وَتَحْتَدِم،

وَتَصْهَلُ الْخُيُولُ فِى رُعْب.

فَوْقَ السَّهْلِ الْمُنْبَسِطِ يَخْتَالُ الشَّيْطَان،

وَفِى الظُّلْمَةِ تَتَوَهَّجُ عَيْنَاه بِالْبَهْجَة.

تَبْدأُ الْخُيُولُ فِى الارتِعَاد،

وَتَمضِى الأَجْرَاسُ فِى الرَّنِينِ نَحوَ..

الشَّيَاطِين، الشَّيَاطِينُ بِلاَ حَصْر

يَتَجَمَّعُونَ حَوْلَنَا فِى دَائِرَة.

فِى اللَّعِبِ الْمُخِيفِ لِضَوْءِ الْقَمَر

يُكَشِّرُون، يُعَوِلُون، يَصْرُخُون،

مُلْتَفِّينَ، مُتَقَافِزِين، وَهُم بِجُنُونٍ يَرْقُصُون

كَأَوْرَاقِ الْخَرِيفِ تَذْرُوهَا الرِّيَاح.

فَلِمَاذَا هُم إِلَى هَذَا الْحَدِّ مُتَوَحِّشُون، هَكَذَا مُهْتَاجُون؟

لِمَاذَا هِىَ غَرِيبَةٌ هَكَذَا الأَصْوَاتُ الَّتِى يُصْدِرُون؟

أَيَكُونُ ذَلِكَ زِفَافَ جِنِّى

أَم، رُبَّمَا، استِيقَاظَ سَاحِرَة؟

مُدَوِّمَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة، مُنْدَفِعَةٌ سُحُبُ الْعَاصِفَة،

السَّمَاوَاتُ غَائِمَةٌ، وَالْمَسَاءُ غَائِم،

وقَمَرٌ مَاكِر

مَن يُشْعِلُ الضِّيَاءَ سِرًّا فِى الثُّلُوجِ الطَّائِرَة.

عَالِيًا نَحْوَ السَّمَاءِ، تَعْلُو الشَّيَاطِينُ الدَّوَّارَة،

مُغَطَّاةً بِالثُّلُوجِ الْمُتَهَاوِيَة،

وَعُوَاؤُهُم الْمُرَوِّعُ الأليم

يملأُ قَلْبِى بِالْوَيْلِ وَالرَّهْبَة.

١٨٣٠

مرثِيَّة

المَرَحُ وَالضَّحِكُ المُنطَفِئُ لأعوَامِى المَجنُونَة
يَعتَرِينِى كَضُحًى مُفعَمٍ بِالدُّخَان.
مَا هكَذَا الألَمُ المَاضِى- فَهوَ بِالنِّسبَةِ لِى كَالخَمر
الذِى يَزدَادُ عُنفُوَانًا مَعَ مُرُورِ الزَّمَن.
حَزِينٌ هُوَ الدَّربُ أمَامِى: العَنَاءُ وَالأسَى
يَكمُنَانِ فِى بِحَارِ المُستَقبَلِ القَلِقَة.

لَكِنى، آه أيُّهَا الأصدِقَاء، أنقَبِضُ مِن فِكرَةِ المَوت؛
فَأنَا أُرِيدُ أن أحيَا- أن أُعَانِى وأُفَكِّر،
أن أذُوقَ الهَمَّ وَالحُزنَ وَالاهتِيَاج،

للغبطَةِ وعُذُوبَةِ الابتِهَاج ؛

ان اسكَرَ بِالتَّنَاغُمِ؛ أن ألَمسَ أوتَارَ الخَيَال

وابكِي بِحُرِّيَّةٍ عَلَى خَيَالاَتِه...

ووَمضَةُ الحُبِّ الأخِيرَة، بَسمَةُ وَدَاعِهِ الحَنُون

قد يَجعَلُهَا أُفُولِي الحَزِينُ أقَلَّ حُزنًا.

١٨٣٠

مَنسيَّةٌ بَصَمَاتُ الحِقبَة...

صَديقِى، مَنسيَّةٌ بَصَمَاتُ الحِقبَةِ العَابِرَة

مَنسِىٌّ نَهرُ شَبَابِى الثَّائِر

فَلاَ تَسأَلنِى عَمَّا أَفتَقِدُ بَعدَ ذَلِك،

عَمَّا أحسَستُ فِى أوقَاتِ البَهجَةِ وَالبَلاَء،

عَمَّا أَحبَبتُ، وَكَيفَ هُجِرْت

فَمَا زَالَ لِى أَيضًا أَن أَذُوقَ البَهجَةَ الحَقِيقِيَّةَ،- الفِطرِيَّة؛

لَكِنَّك بَرِىءٌ! مَجبُولٌ فَحَسب مِن أَجلِ النِّعمَة

فَلتُؤمِن بِهَا وَلتُمسِك بِنَصِيبِ كُلِّ لَحظَة

فَرُوحُكَ خُلِقَت مِن أَجلِ الصَّدَاقَة وَالإِخلاَص،

مِن أَجلِ قُبلَةٍ عَاشِقَةٍ مَشبُوبَة.

رُوحُكَ طَاهِرَةٌ وَلَيستَ عُرضَةً لِلحُزن

وَضَميرُكَ نَاصِعٌ كَأَىِّ نَهَار

فَلِمَّاذَا إِذًا تَلتَفِتُ إِلَى خَبَلٍ وَجُنُون

الشَّائِعَةِ المُغرِضَة؟

فَستُحِلُّ مَحَلَّ سَلاَمِكَ الاهتِيَاج

سَتَرتَعِدُ مَعَ قَلبِكَ وَتَصرُخُ فِى الفِرَاش

سَتَفقِدُ رُوحُكَ ثِقَتَهَا فِى الإِثَارَة

وَأنتَ، رُبَّمَا.. يَا حُبِّى قَد تَتَنَامَى حَتَّى الفَزَع

مَن يَدرِى؟ رُبَّمَا إِلَى الأَبَد.. لاَ، يَا عَزِيزِى

أَخشَى أَن تُطِيحَ بَعِيدًا بِالبَهجَةِ الوَحِيدَة

فَلاَ تَطلُب هُنَا اعتِرَافَاتٍ خَطِرَة

فَاليَومَ أَنَا أُحِب، وَأَنَا اليَومَ سَعِيد.

مَاذَا يَعنِى لَك اسمِى؟

مَاذَا يَعنِى لَك اسمِى؟.. فَسَيَمُوت
كَمَا يَمُوتُ الهَدِيرُ المُوحِش
لِلأموَاجِ البَعِيدَةِ، أَو الآهَةُ اللَّيلِيَّة
المَكتُومَةُ لِلغَابَةِ ذَاتَ صَيف.

عَلَى وَرَقَةِ ألبُومٍ ذَاوِيَة،
سَيَبدُو بَاهِتًا وَمُلغِزًا،
كَكَلِمَاتٍ مَخطُوطَةٍ عَلَى مَقبَرَة، أَو
بَقَايَا عَصرٍ مُتَلاَشٍ وَمَيِّتٍ مُنذُ القِدَم.

ماذا يَكمُنُ فِي اسمِي؟... مَنسيًا طَوِيلاً،

وقد مَحَاه الهَوَى الجَدِيدُ، العَاصِف

لن يَترُكَ فِيكِ مِنَ المَحَبَّة،

الإحسَاسَ العَذبَ البَاقِي.

لكِن فِي سَاعَةِ عَذَاب،

فلتَنطِقِي بِهِ، أرجُوكِ، ولتَستَدعِي صُورَتِي،

ولتَقُولِي: "إنَّه مَا يَزَالُ يَذكُرُنِي،

وَقَلبُه وَحدَه مَا يَزَالُ يُكِنُّ لِي التَّقدِير".

١٨٣٠

عِنْدَمَا آخُذُ قَوَامَكِ النَّحِيل...

عِنْدَمَا آخُذُ قَوَامَكِ النَّحِيلَ بَيْنَ ذِرَاعَى

- غَنِيمَةٌ لاَ تُقَدَّرُ بِثَمَن-

وَكَلِمَاتُ الْحُبِّ، دَافِئَةٌ، مُهْتَاجَةٌ،

تَتَدَفقُ إِلَيْكِ فِى فَرَحٍ وَنَشْوَة،

فِى صَمْتِ عِنَاقِىَ الطَّائِش

تُخَلِّصِينَ نَفْسَك،

وَلِبُرْهَةٍ، تَبْدُو عَلَى وَجْهِكِ ابْتِسَامَة

تُصْبِحُ فَجْأَةً مُرْتَابَةً، شَاحِبَةً، وَنَائِيَة.

وَعَلَى الْفَوْرِ تَسْتَدْعِى ذَاكِرَتُك،

شَائِعَةَ أَسَالِيبِى الْمُلْتَوِيَة-

الحَدَثُ، وَأَنْتِ مُعْتَكِرَةُ المزَاج،

الرَّافِعُ عَن قَضِيَّتِى، وَأَنْتِ ضَجِرَة...

آه كَم ألعَنُ التَّسلِيَاتِ الْعَذبَة

وَمَبَاهِجَ شَبَابِىَ الشِّرِّير،

لِقَاءَاتِ الْحُبِّ اللَّيْلِيَّة،

وَالنُّزهَاتِ فِى أحَدِ الأمَاكِنِ الْمُنْعَزِلَةِ الْمُظْلِمَة

أو فِى طَرِيقِ بُسْتَان،

الْقَصِيدَةَ الَّتِى أَثَارَ صَدَاهَا الدَّمَ وَحَفَزَه،

الْقُبلاَتِ الْحَنُونَةَ الَّتِى مَنَحَتْهَا- قَبلَ الأوَانِ- حَبِيبَاتٌ وَاثِقَات

وَنُوَاحُهُنَّ الَّذِى جَاءَ بَعْدَ فَوَاتِ الأوَان.

١٨٣٠

الصَّدَى

عِنْدَمَا يَضْرِبُ الرَّعْدُ إِيقَاعَه الْمُخِيف

أَو تَصْرُخُ الْحَيَوَانَاتُ الْوَحْشِيَّةُ فِى الْغَابَات،

عِنْدَ صَوْتِ النَّفِيرِ أَو أُغْنِيَةِ الْعَذْرَاء-

إِجَابَتُكَ وَاضِحَة

لِكُلِّ صَوْتٍ تَأتِى حَادَّةً قَوِيَّة

مِنَ الْهَوَاءِ الْخَالِى.

وَتَسْمَعُ صَدْمَةَ الرَّعْدِ السَّاحِقَة،

الْعَاصِفَةَ الْهَادِرَةَ وَالصُّخُورَ الْهَاوِيَة،

وَنِدَاءَ الرَّاعِى إِلَى قَطِيعِه

فتبعث بإجابتك

قدرك.. ألاّ تتلقّى شيئًا من جديد

يا صديقيَ الشّاعر.

١٨٣١

الرَّغبَةُ تَتلاَشَى...

عِشتُ لأَرَى الرَّغبَةَ تَتلاَشَى،
كَبُرتُ بِبُطءٍ مَعَ الأمَلِ فِى الرَّحِيل،
وَهَا قَد تُرِكتُ فَحَسب مَعَ العَذَاب،
ثَمَرَةِ خَوَاءِ القَلب.

تَحتَ عَوَاصِفِ القَدَرِ القَاسِى
ذَوَى إِكلِيلُ زُهُورِى-
وَفِى حُزنٍ، وَوَحشَةٍ، هَا أَنَا مُنتَظِر:
مَتَى سَتَأتِى نِهَايَتِى؟

مثلَ الوَرَقَةِ الأخيرَةِ، فِى الأغصَانِ العَارِيَة،

تلتَوِى فِى حُزنٍ، وَحيدَةً،

عِندَ صَفيرِ العَاصِفَةِ الثَّلجيَّة،

تحتَ لَدغَاتِ الصَّقِيعِ القَاتِلَة.

إِذَا مَا خُدِعتَ بِالحَيَاة،

إِذَا مَاَ خُدِعتَ بِالحَيَاة...

فَلاَ تكتَئِب، لاَ تَتَهَوَّر!

وَفِى يَومِ الحُزنِ، فَلتَكُن مُعتَدِلاً

فَالأَيَّامُ البَهِيجَةُ ستَأتِى، صَدِّقنِى.

فَالقَلبُ يَعيشُ فِى الغَد؛

وَالحَاضِرُ هُنَا مَنكُود؛

وَفِى لَحظَةٍ، يَمضِى الحُزن؛

وَمَا يَمضِى سَيَكُونُ غَالِيًا.

تحتى يستلقى القُوقاز

تَحْتِى يَسْتَلْقِى الْقُوقَازُ ذُو القُبَّعَةِ الفِضِّيَّة...

وَعِنْدَ أَقْدَامِى يَنْدَفِعُ أَحَدُ السُّيُولِ، مُزْبِدًا وَصَاخِبًا.

أُرَاقِبُ نِسْرًا يُحَلِّقُ فِى سَكِينَةٍ فَوقَ الْقِمَم،

يَنْحَرِفُ مُقْتَرِبًا كُلَّمَا دَارَ- بِلاَ حِرَاكٍ- حَوْلَ السَّمَاء.

هُنَا وُلِدَت الأَنْهَارُ كَى تُمَزِّقَ الْجِبَالَ إِلَى أَشْلاَء

وَتَبْدَأُ الانهِيَارَاتُ بِوَقْعِ الْهَزِيمِ، كمَا هَزِيم الرَّعْد.

هُنَا تَطْفُو مَهِيبَةً سُحُبُ الْعَاصِفَة،

وَخِلاَلَهَا تَسَّاقَطُ سُيُولُ الْمَاءِ الرَّشِيقَة؛

فَتَقْتَحِمَ حَوَافَّ الْمُنْحَدَرَاتِ الْهَائِلَةِ الْعَارِيَة،

وَتَنْدَفِقُ سَاقِطَةً إِلَى الأَعْمَاق

مُجْتَاحَةً مِسَاحَاتِ الطُّحْلُبِ وَالأَدْغَالِ الْمَيِّتَة.

فِى الأَسْفَل تَنْتَشِرُ الْبَسَاتِينُ الْخَضْرَاء،

الْمُورِقَةُ بِالأَعْشَابِ وَالرَّائِحَةِ الْعَذْبَة

حَيْثُ تَسْكُنُ الطُّيُورُ فِى سَلاَمٍ، وَيَرْعَى الأَيلُ فِى اطْمِئنَان.

فِى الأَسْفَل، يَسُوقُ الرِّجَالُ قُطْعَانَ الْغَنَم عَلَى التِّلاَل

مُطَوِّفِينَ بِالْمَرَاعِى إِلَى الْمَرجِ الْمُزدَهِرِ الزَّاهِى.

وَحَيْثُ يَجْرِى "أَرَاجِقًا"، وَقَد اكْتَسَى شَاطِئَاه بِالظِّلاَل

يَنْحَدِرُ أَحَدُ الرُّعَاة.

وَفِى أَحَدِ الْوِهَادِ القَرِيبَةِ الْعَمِيقَة،

يَخْتَبِئُ فَارِسٌ بَائِسٌ مُتَوَتِّرًا وَسَاهِرًا،

وَيَرْكُضُ "تيرِيك" الْوَحْشِىُّ الضَّاحِكُ بِجُنُون،

مُتَهَاوِيًا مُتَقَافِزًا.

يندفعُ بِعُنْفٍ كَحَيَوَانٍ وَحشِيٍّ فِي قَفَص
لا يَصِلُ إِلَى الطَّعَام،
وهوَ مُتْخَمٌ بِالْجُوعِ وَالحُرقَة،
يلْعَقُ الصُّخُور،
وَصَارِخًا مُهْتَاجًا يَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ إِلَى الشَّاطِئِ فِي سُعَارٍ وَثَوْرَة.
وَا أسَفَاه! لَقَد أُحْبِط: فَالْجِبَالُ تُحَاصِرُه؛
وَخَرسَاءَ- كَمَرَدَةٍ مُتَوَعِّدِين- تَعْتَصِرُه فِي خَفَاء.

١٨٢٩

عِنـدَمَـا أَتَـمَـشَّـى...

سَوَاء مَا إِذَا كُنتُ أَتَمَشَّى فِى شَوَارِعَ صَاخِبَة،
أو أدخُلُ كَنِيسَةً تَعِجُّ بِالنَّاس،
أو أَقضِى اللَّيلَ فِى صُحبَةٍ صَاخِبَة- لاَ فَرق!-
أُطلِقُ العِنَانَ لأفكَارِى.

أَقُولُ لِنَفسِى: الأعوَامُ سَرِيعَةُ الزَّوَال،
وَنَحنُ جَمِيعًا الذِينَ نَتَجَمَّعُ هُنَا الآنَ
سَنَلمَحُ قَبلَ وَقتٍ طَوِيلٍ وَجهَ المَوتِ المُخِيف؛
فَسَاعَةُ المَرءِ فِعلاً فِى مُتَنَاوَلِ اليَد.

وعندمَا أنظُرُ إلَى شَجَرَةِ سِنديَانٍ عَتيقَة

أفكّر: إنَّهَا سَيِّدَةُ الغَابَة.

ستتَجَاوَزُ عُمرِى المَنسِى؛

مِثلمَا تَجَاوَزَت أعمَارَ أسلاَفِى!

وَإذ أدَاعِبُ طِفلاً صَغِيرًا،

فِى الحَالِ يَخطُرُ ببَالِى: الوَدَاع!...

سَأُخلِى مَكَانِى لَك..

فَلاَبُدَّ لِى أن أذوِى فِيمَا تَتَألَّقُ وَردَتُك.

كُلُّ يَومٍ، كُلُّ عَامٍ يَمُر، زَائِلاً،

أُتَابِعُه، فِى فِكرِى، حَتَّى نِهَايَتِه،

مُحَاوِلاً، نَافِدَ الصَّبر،

تَخمِينَ لَحَظَةِ مَوتِى سُدًى.

أَسَيَطلُبُنِى المَوتُ فِى مَعرَكَة؟

أَم فِى أَسفَارِى، أَم وَسطَ الأموَاج؟

أَم أَنَّ وَادِيًا قَرِيبًا

سَيَمنَحُ رُفَاتِىَ البَارِدَ قَبرًا هَادِئًا؟

فَالمَكَانُ الذِى يَأتِى فِيه الرُّقَادُ الأَبَدِى

لاَ أَهَمِّيَّةَ لَه بِالنِّسبَةِ لِلجَسَدِ المَيِّت.

لَكِنِّى أُفَضِّلُ أَن أَبقَى

تَحتَ سَمَاوَاتِ مَوطِنِى...

وَيَومًا بَعدَ يَوم

لَعَلَّ الحَيَاةَ، الفَتِيَّةَ أَبَدًا، تَنسَابُ

آنَئِذٍ، فَوقَ قَبرِى، كَيُنبُوعٍ مُتَدَفِّق،

وَالطَّبِيعَةُ، الجَمِيلَةُ الكَئِيبَة،

تَرمِى عَلَى كُلِّ شَىءٍ إِشرَاقَهَا البَاهِر.

١٨٢٩

الفنَّان

كَانَ الفَنَّانُ الرِّيفِيُّ الكَسُولُ يُلَطِّخُ بِالسَّوَاد

لَوحَةَ العَبقَرِيِّ بِمَوَادِّه،

بِلاَ أيِّ إِحسَاسٍ بِصِيَاغَة

رَسمِهِ الرَّخِيصِ فِي الأَعلَى.

لَكِنَّ اللَّوحَاتِ الغَرِيبَةَ، عَلَى مَرِّ السِّنِين،

تَهوِي كَغُبَار،

فِيمَا تَتَجَلَّى دُرَّةُ العَبقَرِي

لَنَا بِتَأَلُّقِهَا السَّابِق.

هَكَذَا، فَالأَشبَاحُ السَّودَاء

تَرحَلُ عَن قَلبِىَ المُعَذَّب،

وَتُعِيدُ مِن جَدِيدٍ إِحيَاءَ رُؤَى

الأَيَّامِ البِكْرِ الَّتِى تَرَكتُهَا وَرَائِى.

أحببتك

أحبَبتُكِ، وَهَذَا الحُبُّ، إِذ يَرفُضُ المَوت،
قَد يَبقَى- مَن يَدرِي!- مُستَكِنًا فِي صَدرِي.
فَأَرجُوكِ أَلاَّ تَألَمِي- صَدِّقِينِي، بِاختِيَارِي
أَلاَّ أَكُونَ قَد أَزعَجتُكِ وَلاَ حَتَّى أَوجَعتُك.

أحبَبتُكِ فِي صَمتٍ، بِلاَ أَمَلٍ وَبِصُورَةٍ حَقِيقِيَّة،
مُتَوَقِّدًا بِالحَيَاءِ وَحَتَّى الرِّقَّةِ المَشبُوبَة؛
فَهَوَايَ غَيُورٌ وَصَعبُ المِرَاس...
فَلَعَلَّ السَّمَاءَ تَمنَحكِ شَخصًا آخَرَ يُحِبُّكِ هَكَذَا!

١٨٢٩

الحُلم

لاَ مِن أَمَدٍ بَعِيدٍ، فِى حُلمٍ سَاحِرٍ،

رَأَيتُ نَفسِى- مَلِكًا بِثَروَةِ التَّاج؛

كُنتُ فِى حَالَةِ حُبٍّ مَعَك، فِيمَا يَبدُو،

وَكَانَ القَلبُ يَخفِقُ بِالسَّعَادَة.

غَنَّيتُ أُغنِيَةَ هَوَاىَ عِندَ رُكبَتَيك السَّاحِرَتَين.

فَلِمَاذَا، أَيَّتُهَا الأَحلاَمُ، لَم تُطِيلِى سَعَادَتِى إِلَى الأَبَد؟

لَكِنَّ الآلِهَةَ لَم تَحرِمنِى مِن كُلِّ فَضلِهَا:

فَلَم أَفقِد سِوَى مَملَكَةِ أَحلاَمِى.

المُغنِّى

كُنَّا كَثِيرِينَ قَد مَلأنَا الْقَارِب:

الْبَعْضُ مُحلِّقًا فِى الأعَالِى يَضْبِطُ الأشْرِعَة،

وَالْبَعْضُ يَكِدُّ بِالْمَجَاذِيفِ، مُتَحَدِّيًا الرِّيَاحَ الْمُعَانِدَة

فَظَلَلْنَا بِذَلِكَ طَافِين.

أدَارَ الرَّبَّانُ دَفَّةَ الْقَارِب،

الْمُثْقَلِ الْمُمْتَلِئِ، عَلَى حَالَتِه، وَأَرْسَلَه إِلَى الأمَام.

وَأَنَا مَن أُغَنِّى لَهُم، مُرْتَاحَ الْبَال،

وَلاَ مُبَال..

فَاجَأت الْقَارِبَ عَاصِفَةٌ هَوْجَاء

وَأثَارَت الأمْوَاجَ حَتَّى الضَّرَاوَة...

ضَاعَ كُلُّ شَيْء...

أَمَّا أَنَا،

فَقَذَفَت بِي الأَمْوَاجُ الْمُصْطَخِبَةُ مِنَ الأَعْمَاق،

مُطِيحَةً بِجَسَدِي فِي عُنْفٍ إِلَى الرِّمَال

لَقَد تَلاَشَوْا..

وَالآنَ، هَا أَنَذَا أَجْلِسُ أُجَفِّفُ نَفْسِي فِي الشَّمْس

فِي غِنَاءٍ عَذبٍ مَعَ أُغْنِيَاتِي الْقَدِيمَةِ الْمَحْبُوبَة.

١٨٢٧

إِلَى شَوَاطِئِ الوطَن...

إِلَى شَوَاطِئِ الوَطَنِ، بَالِغَةِ العُذُوبَةِ لَكِن البَعِيدَة،

عَلَيكَ أَن تَرحَلَ عَنِ المَكَانِ الأَجنَبِي؛

كَانَت السَّاعَةُ حَزِينَةً وَمُنسَابَة،

وَالدُّمُوعُ تَنسَابُ عَلَى وَجهِي.

بِأَيدٍ بَارِدَةٍ، بِشُعُورٍ مَرِير،

حَاوَلتُ سُدًى أَن أَستَوقِفَك؛

وَالأَلَمُ الرَّهِيبُ لِلفِرَاق

تَوَسَّلتُ إِلَيكِ أَلاَّ تَعتَرِضِيه.

لَكِنَّك، مِنَ القُبلَةِ الأَلِيمَة،

انتَزَعتِ شِفَاهَكِ الرَّقِيقَة،

وَمِن أَرَاضِى النَّفىِ وَالفُقدَانِ الحَزِين
دَعَوتِنِى إِلَى اندِفَاعَاتٍ أُخرَى.
قُلتِ لِى: "فِى يَومِ اللِّقَاء،
تَحتَ السَّمَاءِ الزَّرقَاءِ أَبَدًا،
فِى ظِلٍّ أَشجَارِ الزَّيتُون
سَنَبدَأُ القُبُلاَت، يَا صَدِيقِى، مِن جَدِيد".

لَكِن هُنَاك، وَا أَسَفَاه! حَيثُ السَّمَاءُ تَزدَادُ حَرَارَة
وَزُرقَةً فِى ضَوءٍ شَمسِى،
حَيثُ أَشجَارُ الزَّيتُونِ تَرمِى بِظِلٍّ عَلَى المِيَاه،
تَرقُدِينَ نَائِمَةً مَعَ حُلمِكِ الأَخِير.
وَجَمَالُكِ، وَأَلَمُكِ، وَعَذَابُك
تَلاَشَوا فِى جَرَّةِ رَمَادِ المَيِّت؛
مَعَهُم، تَلاَشَت القُبلَةُ المَوعُودَة...
وَمَا أَزَالُ أَنتَظِرُ جَرَّةَ رَمَادِك...

أَزهَارُ الخَرِيفِ الأَخِيرَة

أزهَارُ الخَرِيفِ الأَخيرَة

أعذَبُ مِن الأزهَارِ الأُولَى لِلسُّهُول.

ذَلِكَ أَنَّهَا تُوقِظُ إحسَاسًا،

قَوِيًّا، رَغمَ أَنَّهَا قَد تَكُونُ حَزِينَة،

مِثلَمَا يَكُونُ أَلَمُ الفِرَاق

أَقوَى مِن عُذُوبَة المَوعِدِ الغَرَامِي.

عَلَى تِلاَلِ جُورجِيَا...

عَلَى تِلاَلِ جُورجِيَا يَسْتَلقِى ضَبَابُ الْمَسَاء..
فِى الأَسْفَلِ، يُزْبِدُ "أَرَاجفَا"
الكَآبَةُ التِى تَمْلأُ فَرَاغَ الأَيَّام
مُبْهِجَةٌ جُزْئِيًا، بِصُورَةٍ غَرِيبَة،
هِىَ الأَلَمُ الْعَذْبُ وَالسَّعَادَةُ الأَعذَب.

وَلأَنَّكِ تَحْتَلِّينَ قَلْبِى، فَلَن تُوَاتِيه السَّكِينَة،
حَتَّى وَهوَ مَرِحٌ، وَلاَ مُبَالٍ بِالأَفْكَارِ الْكَئِيبَة..
فَهوَ يُحِب..
يُحِبُّ لأَنَّه يَجِب، قَبْلَ كُلِّ شَىء،
أَن يَظَلَّ رَاضِيًا.

١٨٢٩

إلَى شَاعر

أيُّهَا الشَّاعِرُ! لاَ تُبَالِغ بِحُبِّ النَّاسِ المُحيطَةِ بِك،

فَسرعَانَ مَا يَزُول- تِلكَ الهَمهَمَةُ المُمَجِّدَة-

وَيَأتِي تَوَدُّدُ البُلَهَاءِ وَضَحِكُ الجُمهُورِ البَارِدِ-

لَكِن عَلَيكَ دَائِمًا أن تَظَلَّ صَارِمًا، مُتَجَهِّمًا وَسَاكِنًا.

أنتَ مَلِك: فَلتَعِش الوَحشَة. عَلَى امتِدَادِ طَرِيقِ الحُرِّيَّة،

فَلتَتَمَشَّ هُنَاكَ، إلَى حَيثُ يَتَجَلَّى عَقلُكَ الحُر،

فِيمَا تَقُومُ بِتَحدِيثِ ثِمَارِ الأفكَارِ، الحَبِيبَة،

دُونَ أن تُطَالِبَ بِجَوَائِزَ لَك.

الجَوَائِزُ دَاخِلك. فَأَنتَ الحَكَمُ الأعلَى؛
بِصَرَامَةٍ أكثَرَ مِنَ الجَمِيع، تُقَدِّرُ عَنَاءَك.
حَسَنًا، فَهَل أنتَ رَاضٍ، آهٍ، يَا فَنَّانِي الصَّارِمِ؟

أنتَ رَاضٍ. إذًا فَدَعِ الغَوغَاءَ يُدِينُونَ شِعرَك،
يَبصُقُونَ عَلَى المَذبَحِ، حَيثُ تَشتَعِلُ نَارُك،
وَيُنَاقِشُونَ مِرجَلَكَ النُّحَاسِي
بِشَرَاسَةٍ صِبيَانِيَّةٍ إِلَى حَدٍّ مَا.

إلى الجَمَال

هِيَ كُلُّهَا تَنَاغُمٌ وَرَوعَةٌ تَمَامًا،

أسمَى مِنَ العَوَاطِفِ وَالعَالَم،

تَستَرخِى، بِحَيَائِهَا العَذبِ،

تَحتَ المُقَامِ الطَّقسِيِّ لِجَمَالِهَا؛

تَتَطَلَّعُ حَولَهَا فِى صَمت:

لاَ مُنَافِسَاتٍ لَهَا، لاَ أصدِقَاء،

فَحَلقَةُ جَمِيلاَتِنَا، الشَّاحِبَةُ المُؤتَلِفَة،

تَخبُو فِى إِشرَاقِهَا البَاهِرِ.

لَكِنَّك، حَيثُمَا لاَ تَكُونُ عَلَى عَجَل،

حَتَّى لِلِقَاءٍ غَرَامِيٍّ مَعَ حَبِيبَتِك،

وَقَلبُكَ لا يُزعِجُه أَيُّ إِحسَاس،

حَتَّى بِأُغنِيَةٍ مِن أَسمَى صَوت،-

إِذَا مَا التَقَيتَهَا عَلَى حِينِ غِرَّة،

فَإِنَّكَ فَجأَةً تَتَوَقَّفُ، مُرتَبِكًا-

فِي نَشوَةٍ، كَأَحَدِ المُصَلِّين،

وَهوَ يُحِسُّ بِقَدَاسَةِ الفِتنَة.

فِى مَنَاجِمِ سَيبِيريَا...

عَمِيقًا فِى مَنَاجِمِ سَيبِيريَا،

دَع الْهَلاَكَ يَقْهَر رُوحَكَ الأَبِيَّةَ الصَّبُورَة

فَلَن يَضِيعَ عنَاؤُكَ السَّاحِقُ وَأَفْكَارُكَ النَّبِيلَة-

لاَ تَخَف.

شَقِيقُ الْمِحْنَة، الأَمَلُ السَّامِى،

فَسَيَنْجَلِى الأَلَمُ مِنَ الزِّنْزَانَةِ الْمُعْتِمَة؛

سَيَصْحُو الْفَرحُ، وَالأَسَى يَزُول..

وَسَيَأتِي الْمَوْعُودُ الْمُنْتَظَرُ مِن زَمَنٍ طَوِيل:

الرِّتَاجَاتُ الثَّقِيلَةُ سَوْفَ تَنْفَجِر- فَابْتَهِجْ!-
وَالْحُبُّ وَالصَّدَاقَةُ بِلاَ خِدَاع،
سَيَأتِيَانِكَ إِلَى عُزْلَتِكَ الضَّارِيَة،
كَصَوْتِيَ الْعَاشِقِ لِلْحُرِّيَّة.

جُدْرَانُ السُّجُونِ سَوْفَ تَتَحَطَّم.. فَاطمَئِن،
وَعَلَى الْبَابِ سَوْفَ تَنْتَظِرُكَ الْحُرِّيَّةُ لِتَتَلَقَّاك
وَأُخْوَتُكَ الْمُسْرِعُونَ لِتَحِيَّتِك،
سَيُقَدِّمُونَ لَكَ- مُبْتَهِجِينَ- السَّيْف.

١٨٢٧

عِنْدَمَا أَهِيمُ فِى الْمَدِينَة...

عِنْدَمَا أهِيمُ فِى الْمَدِينَة، غَارِقًا فِى التَّفْكِير

وَأَصِلُ إلَى الْمَقبَرَةِ الْعَامَّة-

السِّيَاجُ، الأعْمِدَةُ، الْمَقَابِرُ الْحَجَرِيَّةُ النَّاعِمَةُ الْجَمِيلَة،

الَّتِى يَتَعَفَّنُ تَحْتَهَا كُلُّ موتَى الْمَدِينَة،

مَصْفُوفَةٌ إحْدَاهَا جَنْبَ الأُخْرَى عَلَى الْمَرْجِ الطَّرِى

كَضُيُوفٍ شَرِهِينَ عَلَى مَائِدَةٍ خَاوِيَة،

أَضْرِحَةُ ذَوِى الْمَكَانَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الرَّفِيعَة،

الزَّخَارِفُ الْقَبِيحَةُ لِبَنَّائِينَ مِنَ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَة،

وَالنُّقُوشُ، المَحْفُورَةُ نَثْرًا وَشِعْرًا،

التِى تُعَدِّدُ فَضَائِلَهُم، وَمنَاقِبَهُم، وَطَبَقَاتِهِم،.

الزَّوْجُ الْوَلْهَانُ الْمُغَفَّلُ تُمَيِّزُه آلِهَةُ الْحُبِّ النَّائِحَة،

الأَعْمِدَةُ، الْمَسْرُوقَةُ مِن تَوَابِيتِهَا، الْمُزَخْرَفَةُ بِصُورَةٍ بَائِسَة

الْقُبُورُ الْمُعْتِمَةُ، التِى تَنْتَظِرُ بِفُوهَةٍ كَئِيبَة،

النُّزَلاَءُ الْمُحَدَّدُ لَهُم صَبَاحُ الْغَدِ-

أَضْطَرِبُ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَفْكَارِ عَنِ الْحَمَاقَةِ الإِنسَانِيَّة

حَتَّى أَسْقُطَ فَرِيسَةً لِلْكَآبَةِ وَالسَّوْدَاوِيَّة

وَأُرِيدُ أَن أَبْصُقَ وَأَجرِى..

فَكَيْف لِى مَعَ ذَلِكَ أَن أُحِب

فِى أُمْسِيَاتِ الْخَرِيفِ، عِنْدَمَا تَنَامُ السَّمَاءُ فِى الأَعَالِى

كَمَيِّتٍ فِى هُدُوءٍ مهِيب،

أَن أَتَمَشَّى فِى الْعُزْلَةِ الْقَدِيمَةِ لِمَقْبَرَةِ قَرْيَتِنَا الفَقِيرَة،

حَيْثُ الْفَرَاغُ مُتَاحٌ لِمَدَافِنَ حَجَرِيَّةٍ بَسِيطَة،

وَوَجْهُ اللِّصِّ الْمَذْعُور

لاَ يَقتَحِمُ لِلسَّرِقَةِ حِينَ يُوحِشُ اللَّيْل،

لكِنَّه الْفَلاَّحُ الطَّيِّبُ الذى يَمُرُّ مُتَرَحِّمًا

يُهَمْهِمُ وَيَتَنَهَّدُ كُلَّمَا مَرَّ عَلَى هَذهِ الأحجَارِ، الْقَدِيمَةِ البَسِيطَة،

يَكْسُوه الْمَرَضُ الْجِلْدِى،

وَبَدَلاً مِنَ التَّوَابِيتِ وَالأهْرَامَات

ذَات التَّمَاثِيلِ مجْدُوعَةِ الأنْف، وَالأعْمِدَةِ- التَّمَاثِيلِ الشَّائِعَة،

تَنْتَشِرُ شَجَرَةُ السِّنْديَانِ فَوْقَ الْمَقَابِرِ الْجَلِيلَة

تُصْدِرُ الْحَفِيفَ، إذ تُرْعِشُ الأوْرَاق.

١٨٣٦

مُحادثَة بَائع كُتبٍ مَع شاعرٍ

(شَذرة)

مُبَارَكٌ، مَن فِى وِحدَتِه

حَفِظَ أجمَلَ مَخلُوقَاتِهَا،

وَلَم يَنتَظِر، مِنَ النَّاسِ، أو مِنَ القُبُور،

مَدِيحَهُم لَه، عَلَى الوَعى!

مُبَارَكٌ، مَن كَانَ- فِى صَمتِهِ- شَاعِرًا

وَلَم يَضَع تَاجَ الشَّوك،

مَن، مَنسِيًا مِنَ الجُمهُورِ الحَقُود،

بِلاَ اسمٍ، تَخَلَّى عَن هَذِهِ الصَّدَقَةِ العَسِيرَة.

اسْرِ مَكرًا مِن أوهَامِ القَلب،

ما الشُّهرَة؟ مَا الصَّوتُ الوَاهِى لِلقَارِئ؟

ما دَعوَى الأوغَادِ غَيرُ المَكتُوبَة؟

او صَخَبُ البُلَهَاءِ المُبتَهِجِين؟

وَحِيدًا فِى نِهَايَاتِى..

تُركتُ وَحِيدًا فِى نِهَايَاتِى،
الوَلاَئِمُ، وَالعَشِيقَاتُ، وَالأصدِقَاء
تَلاَشَوا مَعَ الأوهَامِ الوَاهِيَة–
ذَوَى الشَّبَابُ بِلاَ انقِطَاع
مَعَ كُلِّ هِبَاتِه مِنَ الإِيمَاءَاتِ الزَّائِفَة.
هَكَذَا، فَالشَّمُوعُ، التِى كَانَت خِلاَلَ اللَّيل
تَحتَرِقُ مِن أَجلِ رُؤيَةِ المُحتَفِلِين،
فِى انتِهَاءِ البَذَخِ المَجنُون،
تَشحُبُ فِى ضَوءِ النَّهَار.

أنشَار

فِي الصَّحرَاء، حَيثُ شُرُوقُ الشَّمسِ لَعنَة،

يَنتَصِبُ أَنشَار، كَحَارِسٍ رَهِيبٍ، شَرِس

وَحِيدًا فِي كُلِّ الكَون،

مَشدُودًا إِلَى السُّكُونِ القَاحِلِ.

أَنجَبَتهُ السُّهُوبُ الظَّامِئَة،

وَالشَّمسُ فِي الأعَالِي تُشِعُّ فِي اتِّقَاد،

وَغَذَّت، حَقُودَةً، جُذُورَه وأَعضَاءَه،

بِالسُّمُومِ القَاتِلَةِ سَرِيعَةِ المَفعُول.

وَفِيمَا يَئِزُّ السُّمُّ فِى نُبَاحِه،
يَذُوبُ فِى لَهِيبِ وَحَرَارَةِ الصَّبَاح،
لَكِنَّه يَتَكَثَّفُ مَعَ حُلُولِ الظَّلاَم،
فِى قَطَرَاتٍ بِللَّورِيَّةٍ تُزَيِّنُ الشَّجَرَة.

لاَ طُيُورَ وَلاَ حَيَوَانَات تَجرُؤُ عَلَى المُخَاطَرَةِ بِالاقتِرَاب.
وَحدَهَا الرِّيَاحُ السَّودَاءُ، بِلاَ أىِّ وَجَل،
تَندَفِعُ، لَكِنَّهَا تَفِرُّ فِى خَوف،
مِن أنفَاسِهِ المُلَوَّثَةِ بِالحِقد.

وَعِندَمَا تَرُشُّ غَيمَةٌ مَاطِرَةٌ تَاجَه
وَتَترُكُ الغُصُونَ الثَّقِيلَةَ مَبلُولَة،
تَنهَمِرُ القَطَرَاتُ مِن الشَّجَرَة

مُثقلَةً بِالسُّمُوم.

لكِن ذَاتَ مَرَّةٍ أَرسَلَ رَجُلٌ رَجُلاً إِلَى أنشَار-
رَجُلاً يَبدُو كَافِيًا... انطَلَقَ العَبد،
فِى حَمِيَّةٍ، وَرَغمَ أَنَّ الطَّرِيقَ كَانَت نائِيَة،
عَادَ فِى الفَجرِ، حَامِلاً السُّم.

فِى خُضُوعٍ صَامِت، أَمَامَ سَيِّدِه،
وَضَع غُصنًا وَرَاتِينج،
وَعَلَى جَبِينِهِ الرَّمَادِىِّ كَانَت تَنسَاب
قَطَرَاتُ عَرَقٍ رَصَاصِىٍّ بَارِد.

وَمُتَهَاوِيًا فِى وَهَنٍ عَلَى حَصِيرَة،
وَوَجهُه قِنَاعٌ لامتِقَاعٍ مَرِيض،
مَات، عَبدًا ذَلِيلاً،

عِندَ أَقدَام سَيِّدٍ جَبَّار.

بِالسُّمِّ غَمَسَ عُمَّالُ الأَمِير

سِهَامهُ حَسبَ أوَامِرِه،

وَإِلَى جِيرَانِه الأَقرَبِينَ وَالأَبعَدِين،

أَرسَلَ بِالمَوتِ عَبرَ الحُدُود.

١٩٢٨

لاَ أَسـًى...

لاَ أَسًى عَلَى أعوَامِ رَبِيعِى،

حَيثُ الأَحلاَمُ وَالحَيَاةُ لَم يَكُونَا عَلَى وِفَاق،

لاَ أَسًى عَلَى خَاتَمِ اللَّيَالِى الغَامِض،

الذِى غَنَّتهُ قِيثَارَةٌ فِى هَوًى مَشبُوب.

لاَ أَسًى عَلَى الأَصدِقَاءِ الزَّائِفِين وَالمُخَادِعِين،

أَكَالِيلِ الوَلاَئِمِ، وَكُئُوسِ الحَفَلاَت،

لاَ أَسًى عَلَى الغَرَامِيَّاتِ الجَمِيلَة-

كَغَرِيبٍ مُتَأَمِّلٍ، أَتَفَادَى هَذِهِ النَّزَوَات.

لَكِن أَينَ زَمَنُ الرَّغبَةِ المُرهَفَة،

زَمَنُ صَمتِ القَلبِ وَخُيُوطِ الأمَلِ الشَّاب؟

أينَ شُعلَةُ الإلهَام وَدُمُوعُه؟

فَلتَعُودِي مِن جَدِيدٍ، يَا أعوَامَ رَبِيعِي!

جَهلِىَ المُعتَادُ...

جَهلِىَ المُعتَادُ- ذَاتَ لَحظَة

صَافَحَته يَدُ الشَّيطَان،

وَرَبَطَ وُجُودِىَ البَائِس

بِوُجُودِه إلَى النِّهَايَة.

أصبَحَت لِى عَينَاهُ الشِّرِّيرَتَان،

أكسَبُ ثَروَةً بَائِسَةً مِنَ العَوَالِم،

وَقَلبِى كَانَ يَخفِقُ فِى تَنَاغُم

مَعَ الكَلِمَاتِ الغَامِضَة.

نَظَرتُ إِلَى كُلِّ شَىءٍ بِنَظرَةٍ ثَاقِبَة،

وَصُدِمتُ بِمَا رَأَيت:

أَم أَنَّ مِثلَ هَذَا العَالَمِ يُمكِنُ أن يَبدُو لِى

ذَاتَ مَرَّةٍ عَظِيمًا وَجَمِيلاً؟

فَمَا تَطَلَّعتَ إِلَيهِ، كَحَالِمٍ صَغِير

فِى عَالَمٍ كَهَذَا، بِلَهفَةٍ عَارِمَة،

مِن أَجلِهِ، بِكُلِّ قَلبِكَ المَاضِى،

أَلَن تَشعُرَ بِالخِزىِ مِن التَّوَسُّلِ لَه إِلَى الأبَد؟

وَنَظَرتُ إِلَى النَّاسِ، أيضًا:

"القُضَاةِ" مِن أَحَطِّ مُستَوَى-

بَالِغِى القَسوَةِ، المُتَعَالِينَ، المُنحَازِين، الحُقَرَاء-

الحَمقَى المُنجَرِفِين دَائِمًا إِلَى الشَّر.

أَمَامَ هَذِهِ الجُمُوعِ المَرعُوبَةِ أَبَدًا،

التَّافِهَةِ، البَارِدَةِ، المُفعَمَةِ بِالانتِقَام،

يَضِيعُ بِبَسَاطَةٍ وَبِلاَ حِيلَةٍ-

صنوفُ الحَق، مَعرِفَةُ العُصُور.

انتِ علَى صَوَابٍ، أَيَّتُهَا الأُمَمُ البَارِعَةُ أَبَدًا،

فنداءُ الحُرِّيَّةِ يَغُطُّ فِي النَّومِ!

وَالقُطعَانُ لَيسَت بِحَاجَةٍ إِلَى اختِرَاعَاتِ الحُرِّيَّة،

ظلّها فَحَسبُ أَن تُذبَحَ وَتُسلَخ،

كَرَاكِمَا مُنذُ أَجيَال-

النِّيرُ مَعَ أَجرَاسِ الجُوكَرِ وَالسَّوط.

نَظَرتُ إِلَى كُلِّ شَىءٍ بِنَظرَةٍ ثَاقِبَة،

وَصُدِمتُ بِمَا رَأَيت؛

أَم أَنَّ مِثلَ هَذَا العَالَمِ يُمكِنُ أَن يَبدُو لِى

ذَاتَ مَرَّةٍ عَظيمًا وَجَميلاً؟

فَمَا تَطَلَّعتَ إِلَيهِ، كَحَالِمٍ صَغِير

فِى عَالَمٍ كَهَذَا، بِلَهفَةٍ عَارِمَة،

مِن أَجلِهِ، بِكُلِّ قَلبِكَ المَاضِى،

أَلَن تَشعُرَ بِالخِزىِ مِن التَّوَسُّلِ لَه إِلَى الأَبَد؟

وَنَظَرتُ إِلَى النَّاسِ، أَيضًا:

"القُضَاة" مِن أَحَطِّ مُستَوًى-

بَالِغِى القَسوَةِ، المُتَعَالِينَ، المُنحَازِين، الحُقَرَاء-

الحَمقَى المُنجَرِفِين دَائِمًا إِلَى الشَّر.

أَمَامَ هَذِهِ الجُمُوعِ المَرعُوبَةِ أَبَدًا،

التَّافِهَةِ، البَارِدَة، المُفعَمَةِ بِالانتِقَام،

يَضِيعُ بِبَسَاطَةٍ وَبِلاَ حِيلَة-

صَوتُ الحَق، مَعرِفَةُ العُصُور.

أنتِ عَلَى صَوَابٍ، أَيَّتُهَا الأُمَمُ البَارِعَةُ أَبَدًا،

فَنِدَاءُ الحُرِّيَّةِ يَغُطُّ فِي النَّوم!

وَالقُطعَانُ لَيسَت بِحَاجَةٍ إِلَى اختِرَاعَاتِ الحُرِّيَّة،

فَلَهَا فَحَسبُ أَن تُذبَحَ وَتُسلَخ،

تُرَاثُهَا مُنذُ أَجيَال-

النِّيرُ مَعَ أَجرَاسِ الجُوكَرِ وَالسَّوط.

لاَ تَغَنِّى، أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ...

لاَ تُغَنِّى، أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ، مَرَّةً أُخْرَى، أَرْجُوك،

أغَانِى جُورجِيَا، فِى حُضُورِى،

فَإِيقَاعُهَا النَّائِحُ يُثِيرُ ذِكْرَى

حَيَاةٍ وَشَاطِئٍ بَعِيدَين؛

لأنها فَهِىَ تُذَكِّرُنِى، فِى قَسْوَةٍ وَنِقْمَة،

بِسُهُولِ ضَوْءِ الْقَمَرِ وَالمَسَاء،

وَبِوَجْهٍ ضَاعَ مِن عَيْنِى طَوِيلاً،

أحْبَبْتُه جِداً، لَكِنِّى تركْتُه، وَا أسَفَاه، وَرَائِى.

عِنْدَمَا تكُونِينَ قَرِيبَةً، أُحَمْلِقُ فِيكِ،

وَعَجَبًا! لاَ يَنْتَابُنِى حُزْنٌ مُمِيت.

وَلَكِن لَدَى أوَّل نَغَمَةٍ مِن غِنَائِك،

يَعُودُ مِن جَدِيدٍ، يُعَذِّبُنِى وَيَسْخَرُ مِنِّى.

لاَ تُغَنِّى، أَيَّتُهَا الْجَمِيلَةُ، مَرَّةً أُخْرَى، أَرْجُوك،

أغَانِى جُورجِيَا، فِى حُضُورِى،

فَإِيقَاعُهَا النَّائِحُ يُثِيرُ ذِكْرَى

حَيَاةٍ وَشَاطِئٍ بَعِيدَين.

١٨٢٨

الأسير

أَسيرًا، أُقِيمُ وَحْدِى فِى بُرْجٍ حَصِين،

مَدْفُونًا فِى صَمْتِ وَظَلاَمِ زِنزَانَة.

فِى الْخَارِجِ، فِى الفِنَاءِ، وَفِى حَرَكَةٍ جُنُونِيَّة،

يَنْقَضُّ رَفِيقِى، النِّسرُ، عَلَى فَرِيسَتِه.

ثُم، إِذ يَتْرُكُ بَقَايَا الْوَلِيمَةِ الْمُلَوَّثَةَ بِالدِّمَاء،

يُحَدِّقُ فِىَّ، بِصَرْخَةٍ حَزِينَة،

صَرْخَةٍ أَشْبَه بِنِدَاءٍ أَو دفاع

"هُوَ الْوَقْت"، قَائِلاً، "هُو الْوَقْت، فَلْنَفِر!

اقْتَرَنَ كِلاَنَا بِالْحُرِّيَّةِ، وَلِهَذَا فَلْنَمْضِ بَعِيدًا

حَيْثُ تَشْرُدُ فِى جُرْأَةٍ سُحُبُ الْعَاصِفَةِ الْوَحِيدَة،

حَيْثُ تَنْدَفِعُ الْبِحَارُ الْهَائِجَةُ لِتَذُوبَ فِى السَّمَاء،

حَيْثُ لاَ يَجْرُؤُ عَلَى الْمُغَامَرَةِ سِوَى الرِّيَاح

وَأَنَا...!"

١٨٢٢

طَـائـرٌ صَغِـيـر

فِى أَرَاضٍ أَجنَبِيَّةٍ أَحتَفِظ

بِجسد الطُّقُوسِ وَالأَشيَاءِ القَدِيمَةِ مِن مَسقَطِ رَأسِى:

سَعِيدًا أُطلِقُ سَرَاحَ طَائِرٍ صَغِير

احتِفَالاً بِالرَّبِيع.

أَنَا الآنَ مُتَحَرِّرٌ لِلعَزَاء،

وَشَاكِرٌ لِلرَّبِّ العَظِيم:

فَعَلَى الأَقَلِّ، مَنَحتُ الحُرِّيَّةَ فِى هَذَا العَالَم

المُغَنِّى

لأحَدِ مَخلُوقَاتِه.

هَل أَصغَيت؟ فَقَد غَنَّى عِندَ البُستَانِ الرَّيَّان

شَاعِرُ الحُبِّ، مُنشِدُ الحِدَاد.

عِندَمَا كَانَت الحُقُولُ صَامِتَةً فِى الصَّبَاحِ البَاكِر،

هَل أَصغَيتَ لِلأَصوَاتِ الحَزِينَةِ البَسِيطَةِ مِن المِزمَار؟

هَل أَبصَرتَ فِى ظُلمَةِ أَورَاقِ الغَابَة

شَاعِرَ الحُبِّ، مُنشِدَ الحُزن.

هَل أَبصَرتَ أَثَرَ الدُّمُوع، وَالابتِسَامَة، وَالشُّحُوبَ التَّام،

والنَّظرَةَ الهَادِئَةَ، المُفعَمَةَ بِالأسَى الأبَدِى؟

هَل تَنَهَّدتَ آنَئذٍ عِندَ سَمَاعِ كَيفَ يَبكِى

شَاعِرُ الحُبِّ، مُنشِدُ الإحسَان؟

عِندَمَا رَأيتَ الشَّابَّ فِى الغَابَاتِ، وَحِيدًا،

وَالتَقَيتَ بِنَظرَةِ عَينَيهِ المُنطَفِئَتَين، هَل تَنَهَّدتَ آنَئذٍ؟

مسَاء

صَوْتِى، الذِى يُضْفِى عَلَيْه الْحُبُّ الْوَهَنَ وَالْحَنِين،

يَشُقُّ ظَلاَمَ الْمَسَاءِ وَالهُدُوءَ الْحَالِم..

شَاحِبًا بِجَانِبِى، مُحْتَرِقًا،

يَغِيبُ الضَّوْءُ الْوَاهِى بَعِيدًا..

وَمِن قَلْبِى

تَمُوجُ هُنَاكَ الْقَصَائِدُ الرَّشِيقَةُ وَجَدَاوِلُ الْحُب

التِى تُهَمْهِمُ وَتُغَنِّى وَتَذُوب

وَتَنْدَفِعُ، حَافِلَةً بِكِ، بِالْهَوَى الطَّاغِى.

يَبْدُو لِى أَنِّى أَرَى عَيْنَيْكِ، مُضِيئَتَيْن، مُتَوَهِّجَتَيْن،

تقابلان بِعَيْنَى.. أَرَى ابْتِسَامَتَك

تُحَدِّثِينَنِى وَحْدِى:

صَدِيقِى، يَا أَعَزَّ الأصدِقَاء..

إِنَّنِى أُحِب.. إِنَّنِى لَك.. مِلكك.

١٨٢٣

يَزْدَادُ الْحُطَامُ الْمُحَلِّقُ...

يَزْدَادُ الْحُطَامُ الْمُحَلِّقُ لِلْغُيُومِ شَفَافِيَةً فِى الْبَعِيد.

آهِ يَا نَجْمَةَ الأَسَى اللاَّمِعَةَ، يَا نَجْمَةَ الْمَسَاء!

لَقَد لَمَسَت إِشْعَاعَاتُك السُّهُولَ الْخَرِيفِيَّةَ لِتُلَوِّنَهَا بِالفِضَّة،

وَالْقِمَمَ السَّوْدَاءَ لِلصُّخُورِ، وَالنَّهْرَ الْحَالِم.

إِنَّنِى أُحِبُّ وَمِيضَكِ الْوَاهِنَ فِى سَمَاءِ اللَّيْل.

فَهوَ يَستَثِيرُ الأَفْكَارَ التِى نَامَت طَوِيلاً لِتَصحُو وَتَتَحَرَّك،

عِنْدَمَا أَتَذَكَّرُ شُرُوقَكِ، أَيَّتُهَا النَّجْمَةُ الرَّفِيقَة،

فَوْقَ هَذِهِ الأَرْضِ الآمِنَةِ، مُحْتَوِيًا كُلَّ الْمَبَاهِجِ،

حَيْثُ تَنْمُو شَجَرَةُ الْحُورِ النَّحِيلَةُ فِى الْوَادِى،

حَيْثُ تَنْعَسُ شَجَرَةُ الآسِ الرَّقِيقَةُ وَالسَّرو الْمُعْتِمَة،

وَبِوَهَنٍ تَتَرَامَى الْبِحَارُ الشَّمَالِيَّة.

هُنَاكَ تَجَوَّلْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ، مُتَأَمِّلاً بِاسْتِرْخَاء،

عَالِيًا فِى الْجِبَالِ، بَعِيدًا فَوْقَ الْبَحْر.

إِلَى أَن جَاءَت- عِنْدَمَا فَاضَ الْغَسَقُ عَلَى الْوَادِى وَالْمَرْج-

عَذرَاءُ تَبْحَثُ عَنْك خِلاَلَ الظَّلاَم،

وَأَخْبَرَت أَصْدِقَاءَهَا الْحَمِيمِين كَيْفَ أَنَّكِ تَحْمِلِينَ اسْمَهَا.

١٨٢٠

العَاصِفَة

مَن رَأى الفَتَاةَ عَلَى الصَّخرَة-

مَلفُوفَةً بِالبَيَاضِ- وَحَولَهَا الأموَاج،

عِندَمَا كَانَ البَحرُ، سَجِينًا فِى الظَّلاَمِ العَاصِف،

يَلعَبُ مَعَ الأرض؟

عِندَمَا كَانَت تُضَاءُ كُلَّ لَحظَة

بِأنوَارٍ قُرمُزِيَّةٍ فِى قَعقَعَةِ الرَّعد،

وَكَانَت الرِّيحُ تَستَلِبُهَا وَتَنطَلِق

فِى طَيَرَانٍ مَجنُونٍ بِمِعطَفِهَا الأَبيَضِ؟

البَحرُ جَمِيل، عِندَمَا تَكُونُ الصُّخُور،

وَالسَّمَاوَاتُ- ذَات الوَمِيضِ، خَالِيَةٌ مِنَ الزُّرقَة؛

لَكِن، يَا إِلَهِى! فَالفَتَاةُ عَلَى الصَّخرَة

كَانَت أَجمَلَ مِنَ الطَّبِيعَة!

هُوَ الوَقت...

هُوَ الوَقتُ، يَا صَدِيقِى، هُوَ الوَقت! فَالقَلبُ يَهفُو إِلَى السَّلاَم:
يَنسَابُ اليَومُ بَعدَ اليَوم- وَسَيلُ السَّاعَاتِ المُنسَاب
يُفتِّتُ شَواطِئَ الوُجُود- وكِلاَنَا، أنتَ وَأَنَا،
كَانَ يَنتَوِى أن يَعِيشَ، وَلَكِن، انظُر، هَا نَحنُ نَمُوت.

وَرغمَ أَنَّ الفَرحَ يَهرُبُ أبدًا، فَالسَّلاَمُ يَبقَى وَالاحتِشَاد.
ومُنذُ أمَدٍ بَعِيدٍ كَانَ عَزَائِى،
كَعَبدٍ يُعَانِى، أن أُخَطِّطَ لِلهُرُوب
إِلَى مَلاَذٍ نَاءٍ لِلعَمَلِ وَالبَهجَةِ البَرِيئَة.

١٨٣٤

الفَارس البرُونزِى

إحدى حكايات سانت بطرسبرج

تقديم

تستند الواقعة الموصوفة هنا على الواقع، والتفاصيل المتعلقة بالفيضان مستمدة من مطبوعات معاصرة. ويمكن - لمن يريد - المقارنة بينها وبين الوصف الذى تركه ف. ن. بيرغ.

افتتاحيَّة

حَيْثُ حَاوَلَت الْمِيَاهُ الْمَعْزُولَةُ، مُكَافِحَةً،

الْوُصُولَ إِلَى الْبَحْرِ، تَوَقَّفَ هُو

غَرِيقًا فِى التَّفْكِيرِ، وَحَدَّقَ فِى الأَمَام.

انْدَفَعَ النَّهْرُ كُلُّه بِقُوَّةٍ إِلَى الْوَرَاء.

وَسْطَ التَّيَّارِ، تَقَافَزَت وَارتَعَشَت

قِشْرَةٌ مِن لِحَاءِ الشَّجَرِ عَلَى الأَمْوَاج.

وَهُنَا وَهُنَاكَ، عَلَى الشَّوَاطِئِ السَّبَخِيَّةِ وَالطُّحلُبِ النَّامِى،

وَكُوخٌ يَلُوحُ مُعتِمًا، مُخَلْخَلاً، مُتَدَاعِيًا،

- هُوَ مَسْكَن "فِينِيس" الْبَائِس-

احتَجَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ الْمُتَوَهِّجُ فِى الضَّبَابِ اللَّبَنِى

ساقطًا عَن الْغَابَاتِ الْكَثِيفَة،

وَشُعَاعُه الْوَاهِى لاَ يَخْتَرِقُ عَتَمَاتِهَا أبدًا.

وَتَأَمَّلَ: هَا هُوَ السّوِيدِىُّ الْمُتَغَطْرِس

الذِى سَنَكْبَحُه وَنُوقِفُه عِنْدَ الْخَلِيج

وَهُنَا، لِنغِيظَه، سَنُؤَسِّسُ مَدِينَة.

وَكَمَا تَأمُرُ الطَّبِيعَةُ يَنْبَغِى أن نَفْعَل:

هَا هِىَ نَافِذَةٌ سَنَعبُرُهَا إِلَى أُورُوبَّا،

مَعَ مَكَاسِبِ قَاعِدَةِ الانطِلاَقِ عَلَى هَذَا السَّاحِلِ،

وَالسُّفُنِ التِى سَنُحَيِّيهَا مِن كُلِّ جِنْسِيَّة،

وَبِحُرِّيَّةٍ نُبْحِرُ عَبْرَ هَذِهِ البِحَار،

وَلَن نَكبَحَ أَنْفُسَنَا مِن جَدِيد.

قَرْنٌ مَرَّ، وَهُنَاكَ انْتَصَبَت
مِن خُيَلاَءِ وَفِتْنَةِ الأَرَاضِي الشَّمَالِيَّة،
مَدِينَةٌ فَتِيَّةٌ، فَاتِنَةٌ، مُتَألِّقَة،
تَختَرِقُ ظَلاَم الْوَحْلِ وَالْغَابَة.
وَحَيْثُ أَتَى "فِينِيس" الصَّيَّاد،
ابنُ الحَظِّ الْبَائِسِ المَنْبُوذ،
مُتَطَفِّلاً عَلَى السُّكُون،
لِيَرْمِي بِشَبَكَتِه البَالِيَةِ، الْمُرَتَّقَةِ مِرَارًا،
إِلَى الْمِيَاهِ السَّاجِيَةِ الْغَامِضَة،
تَنْبَثِقُ هُنَاكَ الآنَ أَبرَاجٌ وَقُصُورٌ هَائِلَة،
مَتَاهَةٌ مِنَ الأَشْرِعَةِ وَقِمَمِ الصَّوَارِي تَزْحَمُ الْمِينَاء؛
هُنَا تَرْسُو سُفُنُ كُلِّ المَوَانِئ
إِلَى هَذِهِ الشَّوَاطِئِ الثَّرِيَّةِ الْمُكْتَظَّةِ بِالْبَشَر؛
يَنْسَابُ "النِّيفَا" الوَاسِعُ المَهِيبُ الْهُوَيْنَى، مُكتَسِيًا بِالجَرَانِيت،
لِيَشُقَّ طَرِيقَه أَسْفَلَ قَنَاطِرَ رَشِيقَة،

الْحَدَائِقُ تُغَطِّى الْجُزُرَ الْمَعزُولَةَ التِى تُبَرْقِشُ النَّهْر،
وَسَطحُهُ الزُّجَاجِى رَمَادِىٌّ وَسَاكِن.
وَتَخْبُو مُوسكُو القَدِيمَةُ بِجَانِبِ غَرِيمَتِهَا.
عَجُوزًا مهِيبَةً، أَقلَّ بَهَاءً،
احتَجَبَت أَضْوَاؤُهَا بِالوَافِدِ الْجَدِيد
الذِى اعْتَلَى الْعَرْشَ، فِى الثَّوبِ الأُرْجُوَانِى.

إِنَّنِى أُحبُّك، يَا إِبدَاعَ بُطرُس المهِيب،
جَلاَلَ خَطِّكِ السَّامِى،
وَ"النِّيفَا" الْمَلَكِىُّ يَتَقَدَّمُ، صَبُورًا،
خِلاَلَ الْجُدْرَانِ الْمُتَجَهِّمَةِ لِكُتَلِ الصُّخُور،
الزَّخْرفَةَ الْحَدِيدِيَّةَ لأَسْيِجَتِك،
أُمْسِيَاتِكَ الْحَزِينَةَ، بِلاَ قَمَرٍ، الصَّقِيلَة
الْمُرْتَدِيَةَ ثَوبَ الْغَسَقِ، لَكِنَّهَا شَفَّافَة
كَثِيرًا مَا يَتَصَادَف
أَن أَكْتُبَ أَو أَجْلِسَ مُتَمَعِّنًا فِى كِتَاب
- فِى غُرْفَتِى بِلاَ ضَوء-

فِيمَا تَستَلْقِي الشَّوَارِعُ نَاعِسَةً، مُضَاءَة،

وَرَاءَ كُتَلٍ ضَخْمَةٍ، خَاوِيَة...

وَعَالِيًا، فِي مُوَاجَهَةِ السَّمَاء،

يَرْتَسِمُ بِوُضُوحٍ بُرجُ الأدمِيرَالِيَّة...

الظَّلاَمُ يَنْدَفِعُ بَعِيدًا عَنِ السَّمَاء،

يُسْرِعُ الشَّفَقُ لِيُرَحِّبَ بِالشَّفَق،

مَانِحًا الْمَسَاءَ بِالْكَادِ نِصفَ سَاعَة..

أُحِبُّ شِتَاءَكِ الْعَفِيفَ الصَّارِمِ

بِهَوَائِه الْمُنْعِشِ السَّاكِن

بِاللَّذعَةِ وَالقَرصَةِ الشَّهوَانِيَّة لِلصَّقِيع،

سِبَاقَ الْمَطَارِقِ عَلَى شَوَاطِئِ "النِّيفَا"،

تَوَرُّدَ الْخُدُودِ الشَّابَّة الْمُشرِقَة،

تَأَلُّقَ وَصَخَبَ قَاعَةِ الرَّقص،

وَالتَّقبِيلَ وَوَمِيضَ الشَّمبَانِيَا الْمُثَلَّجَة،

عِندَ اجتِمَاعِ الفِتيَان،

وكُئُوسَ الْخَمْرِ يَعْلُوهَا الوَهَجُ الضَّارِبُ لِلزُّرقَة.

أحِبُّ قُوَّةَ وحَيَوِيَّةَ سَاحَة "مَارس"

حَيْثُ يَمُرُّ المُشَاةُ وَالخَيَّالَةُ فِى الاستِعْرَاض،

مُتَأنِّقِينَ مُتَّزِنِين،

تَنَاسُقُهُم وَهَيأتُهُم الأنِيقَةُ مَنْظُرٌ جَمِيل.

فِى الْمَعَارِكِ الْمُشتَعِلَة،

تُبحِرُ البَوَارِجُ هُنَا، تَفِيضُ بِفرْحَةِ النَّصْر،

وَهُنَاك، تُقَابِلُ العَيْنُ الخَوذَاتِ وَالتِمَاعَهَا،

مَصْقُولَةَ الأجنَابِ بِنُدُوبِ الرَّصَاص.

أحِبُّ سَمَاعَ هَزِيمِ الرَّعد،

أيَّتُهَا المَدِينَةُ المَهِيبَةُ الرَّائِعَةُ وَالثَّرِيَّة،

عِنْدَمَا تُقَدِّمُ زَوْجَةُ الْقَيصَرِ الشَّابَّة

وَرِيثًا إِلَى البَيْتِ الْمَلَكِىِّ لِرُوسيَا،

وَعِنْدَمَا نُسَجِّلُ، مُفعَمِينَ بِالفَخْرِ وَالمَرَح،

آخِرَ انتِصَارَاتِنَا الحَرْبِيَّة،

أَو عِندَمَا يُحَطِّمُ "النِّيڤَا" بِجُرأة
قُيُودَه الزَّرقَاءَ الشَّاحِبَة،
وَبَعِيدًا إِلَى الْبَحر
يَنْدَفِعُ مُتَهَلِّلاً الثَّلْجُ الْمُهَشَّم.

فَلتَتَنَصبِى، يَا قَلْعَةَ بُطرُس،
كَمَا رُوسيَا ثَابِتَةً وَرَاسِخَة،
وَلاَ تَدَعِى الْعَنَاصِرَ تَتَمَرَّد مِن جَدِيد، بَل تخضَع؛
فَلْتَقْمَعِى خَوفَكِ، يَا أَموَاجَ "فِينِيس"، وَاقهَرِيه،
وَلَعَلَّ عَدَاءَ المَولُودِ الْقَدِيم
يَذُوبُ الآنَ وَأَبَدَا،
وَيَتْرِكُ نَوْمَ بُطرُس هَادِئَا!...
حَيًّا- نَحْتَفِظُ فِى ذِكرَيَاتِنَا
بِزَمَنٍ حَزِينٍ وَمُظْلِمٍ وَمُمِيتٍ لِلغَايَة...
وَلِهَذَا، فَأَنَا أَبدَأُ حِكَايَتِى بِالرُّعْب،

لأنَّ المُوجعَ لأبُدَّ أن يَكُونَ مُوجعًا،

أيُّهَا الأصدقَاءُ الأعِزَّاء، وَحَزينًا.

الجُزء الأوَّل

تُلْجيَّةٌ بِأنفَاسِ نُوفَمبر القَارِس،

تَسْتَلقِي المَدِينَةُ كَئِيبَةً وَمُوحِشَةً..

وَتَنْدَفعُ بِوَحشِيَّةٍ إلَى الشَّوَاطِئِ الجَرَانِيتيَّة

أموَاجُ المُقَدِّمَة لِلنِّيفَا القَلِق

مَعَ صَخَبِهِ المُتَرَدِّدِ كُلَّمَا تَملمَلَ بِعَصَبِيَّة

وَتَقَلَّبَ كَالمَحْمُومِ فِي الفِرَاش.

كَانَ الوَقتُ مُتَأخِّرًا:

الظَّلاَم؛ وَالمَطَرُ يَضرِبُ الجَانِبَ فِي غَضَب؛

وَالرِّيَاحُ تَعْوِي حَزِينَةً بِلاَ انقِطَاع...

كَانَ الشَّابُّ يڤجِينِي قَد عَادَ إلَى البَيْت

مِن إحدَى الحَفَلاَت.

سَوَف نَدْعُو بَطَلَنَا بِهَذَا الإِسم.

وَهوَ اسْمٌ مُبْهِجٌ ويُنَاسِبُه تَمَامًا،

وَكَانَ صَدِيقًا لِقَلَمِى سَنَوَاتٍ طَوِيلَة.

وَلَن نَحْتَاجَ أَبَدًا إِلَى لَقَب:

فَيِقْجِينُنَا يُمكِنُه الاستِغْنَاء عَنه.

وَرَغمَ أَنَّ المَاضِى

رُبَّمَا كَان قَد تَألَّقَ وَتَوَافَق

كَمَكَانٍ خَصِيبٍ فِى التُّرَاثِ الرُّوسِى،

وَرَغمَ أَنَّ "كَارَامزِين" كَانَ قَد سَجَّلَ شُهْرَتَه

التِى لاَ تُذْكَرُ هَذِه الأَيَّام

وَالتِى نَسِيَهَا الْعَالَمُ كُلُّه..

تَجَنَّبَ بَطَلُنَا الأَرستُقرَاطِيَّة،

وَهوَ يَعِيشُ فِى "كُولُومنَا"، كَاتِبًا،

بِلاَ مُبَالاَةٍ- مُتَحَرِّرًا مِنَ الطُّمُوحِ المُخْتَال-

بِأَسلاَفِهِ اللاَّمِعِين.

وهكَذَا، فَذَاتَ مَرَّةٍ فِى بَيْتِه،

نفَضَ يقْجِينِى مِعطَفَه المُبَلَّلَ بِالمَطَر،

خلَعَه وأوَى إِلَى الفرَاش

حَاوَلَ جُهْدَه أَن يَنَامَ، لَكنَّه فَشَلَ:

مَلأت عَقْلَه أفكَارٌ كَثِيرَةٌ لِلغَايَة.

أنَّه فَقِيرٌ، وَاستَغْرَقَ فِى ذَلِك؛

أنَّ الحُصُولَ عَلَى وَظِيفَةٍ أمرٌ شَاق؛

أنَّ إمكَانِيَّاتِ تَقَدُّمِه وَمَعِيشَتِه مَحكُومَةٌ بِجُهُودِهِ

أنَّ الثَّروَةَ وَالذَّكَاءَ وَهِبَاتِ اللهِ المُمَاثِلَة

هُوَ خَالٍ مِنهَا؛

وَأنَّ التَّوسُّلَ بِالحَظِّ هُوَ الأقَلُّ جَدَارَةً وَجَدْوَى؛

أنَّه الآنَ يَعْمَلُ كَاتِبَ دِيوَانٍ لِعَامَيْنِ كَامِلَينِ تَقرِيبًا؛

وَأنَّ الطَّقسَ- انظُر الآن-

يَتَحَوَّلُ كُلُّه إلَى شَىءٍ بَغِيض؛

وَأنَّ مُستَوَى النَّهْرِ كُلَّمَا ارتَفَع

ارتَفَعَت فَوقَه المَعَابِر،

وَذَلِكَ مَا يَعْنِى أَنَّه وَحَبِيبَتَه "بَارَاشَا"

رُبَّمَا افتَرَقَا لِيَومٍ أو يَومَيْن، وَرُبَّمَا أَكثَر.

تَنَهَّد، وَكَشَاعِرٍ حَقِيقِىٍّ مَوهُوب،

غَرِقَ فِى حُلمٍ، تَارِكًا الخَيَالَ يَطُوف:

"لِمَ لاَ أَتَزَوَّج، وَيَكُونُ لِى بَيت، وَأُسْرَة؟

فِى الْوَاقِعِ، أَنَا أَنوِى ذَلِكَ لِكلَينَا..

فَلَن تَكُونَ الأُمُورُ سَيِّئَة،

رَغْمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ فِى الْبِدَايَةِ شَاقَّة-

فَأَنَا شَاب،

وَسَعِيدٌ أَن أَكْدَحَ بِلاَ رَاحَة،

بِلاَ مُبَالاَةٍ بِمَا سِوَى ذَلِك...

سَأَبْنِى لَنَا عُشًا! عُشًا مُتَوَاضِعًا،

فِيه تَسْتَقِر "بَارَاشَا".

وَفِى زَمَنٍ كَافٍ، عَام، فِى أَفضَلِ الأَحْوَال،

حَالَمَا أَكُونُ قَد أَمَّنتُ عَمَلاً وَمَركَزًا اجتِمَاعِيًا،

سوف تَمْضِى تَربِيَةُ وَتَنْشِئَةُ أَولاَدِنَا مَعَهَا...

بروحٍ تُهَدّئُ مِن عوَاصِفِ الْحَيَاة

سننْحِرُ، وَنُدفَنُ فِى نِهَايَتِهَا مَعًا

وسَنَكُونُ بِجَانِبِ أَبْنَاءِ أبنَائِنَا..."

كَذَلِكَ كَانَت أفكَارُه.

وَحَتَّى عِنْدَمَا كَانَ مُكْتَئِبًا،

وَتَمَنَّى لَو تُعْوِلُ الرِّيَاحُ بِدَرَجَةٍ أَقَلَّ حُزْنًا،

حَتَّى لَيُثِيرُ سَمَاعُهُا الأَسَى،

وَلَو أَنَّ المَطَرَ لَم يَكُن أَكْثَرَ وَحْشَةً، أَكثَرَ مُثَابَرَة..

نَامَ فِى النِّهَايَة...

وَفِى الخَارِجِ رَقَّ ضَبَابُ الْمَسَاء الآن،

مُتَلاَشِيًا عَلَى عَجَل،

وَفَوق المَدِينَةِ أَشرَقَ يَومٌ شَاحِب

يَومٌ مُرعِبُ!

فَطوَالَ اللَّيْل

كَانَ النِّيڤَا الْمُتَجَمِّدُ يُهَاجِمُ العَاصِفَةَ بِجُنُون،

مُحَاوِلاً بِلاَ جَدوَى الوُصُولَ إِلَى البَحْر،

وَتُحْبِطُ مُحَاوَلاَتِه قُوَّةُ العَاصِفَة..

وَفِى الصَّبَاح

أَتَت الحُشُودُ لِتَشهَدَ القِبَابَ الْمرتَفِعَةَ لِلأَموَاج،

التِى اندَفَعَت بِعُنْفٍ- هَازِئَةً بِكُلِّ العَوَائِق-

إِلَى الشَّاطِئِ بِالرَّذَاذِ وَالزَّبَد.

وَمَحْجُوزًا عَن الخَلِيجِ بِالرِّيَاح،

استَدَارَ "النِّيڤَا"- مُغْتَاظًا- عَائِدًا، وَهوَ يُزَمجِر،

بِغَضَبٍ وَحشِيٍّ وَهَوًى كَسِير

وَأَغرَقَ الجُزُر...

وَدَائِمًا مَا تَتَزَايَدُ ضَرَاوَةُ الْعَاصِفَة.

اضطَرَبَ النَّهرُ مُهتَاجًا، وَغَلَى،

استَشَاطَ غَضَبًا، وَعَلاَ،

وَكَحيَوَانٍ، تَجْتَاحُه الرَّغبَةُ فِى الانتِقَام،

صَبَّ غَضَبَه عَلَى المَدِينَة.

أمَامَه هَربَ الجَمِيعُ، وَخَلَت الشَّوَارِع،

ارتَفَعَت القَنَوَاتُ عَالِيًا وَفَاضَت،

اندَفَعَت سُيُولٌ مُتَلاَحِقَةٌ إلَى الطَّوَابِقِ الأرضِيَّةِ وَالمَخَازِن

وَجَرِيئَةٌ اقتَحَمَت البُيُوتَ وَالمَتَاجِرَ التِى اجتَاحُوهَا..

المَدِينَةُ، غَرِقَت حَتَّى الخَصْر،

كَمَا انبَثَقَ "تريتُون"* مِنَ الأموَاج.

يَا لَلحِصَار! هُجُومٌ ضَارٍ! يَكْتَسِحُ مُنْدَفِعًا إلَى الأمَام،

انكَسَرَ تَقَدُّمُ الأموَاج

- كَمَا تَسَلُّل اللصُوصِ عَبْرَ النَّوَافِذ-

بِالمَرَاكِبِ التِى سَحَقَتهَا الرِّيَاح...

وَحَيثُمَا يُمكِنُ أن تَصِلَ العَين،

يَأتِى طَافِيًا حَشْدٌ مِنَ الأشيَاء:

* أحد آلهة البحر عند الأغريق، له جسم إنسان وذيل سمكة.

جُذُوعُ أَشْجَار، أَحَدُ السُّقُوف، أَكشَاك،
بَضَائِعُ التُّجَّارِ المُقتَصِدِين، مِعبَرٌ وَأَثَاثَات،
أَشيَاءُ الفُقَرَاءِ الثَّمِينَة،
كُوخٌ، أَكفَانٌ مِن أَحَد القُبُور...
مُبْتَلِينَ بِغَضَبِ اللهِ المُرَوِّعِ غَيْرِ المُنتَظَر،
يَنْتَظِرُ النَّاسُ المَوْتَ المَحْتُوم!...
لاَ طَعَامَ، لاَ مَأوَى...
قَدَرُهُم جَمِيعًا المَرَضُ وَالمَوْت...
وَالقَيصَرُ الرَّاحِلُ المُبَجَّل،
المُهَيمِنُ آنَئِذٍ عَلى صَولَجَانِ رُوسيَا،
كَانَ أَلَمُه عَظِيمًا حَتَّى أَنَّه،
مُثقَلاً بِوَطأَتِه، قَال:
"وَلَم يَنْجُ حَتَّى أَمِيرٌ وَاحِدٌ مِن غَضَبِ الرَّب،
لأَنَّه أَعزَلُ أَمَامَ العَنَاصِر..."
وَوَاقِفًا فِى شُرفَتِه،
رَأَى بِعَينٍ حَزِينَة،
الدَّمَارَ الوَحشِيَّ الرَّهِيبَ الذِى جَرَى...

كانَ المَيدَانُ بُحَيرَةً وَاحِدَةً واسِعَة

وكَانَت الشَّوَارِعُ سيُولاً فِى كُلِّ مَكَان؛

وبِحِقدٍ وَاضِحٍ اندَفَعُوا تِجَاهَه

كَمَا لَو لاصطِيَادِ الجَزِيرَةِ المَعزُولَة

وَالتِى كَانَت.. القَصْر..

خَاطَبَ العَاهِلُ قَادَتَه البَوَاسِل،

"اعبُرُوا الشَّوَارِعَ الغَرِيقَةَ قَبْلَ سُقُوطِهِم،

ابدَأُوا فِى الحَالِ، مُتَحَدِّينَ السُّيُول،

فِى إِنقَاذِ الشَّعبِ الغَرِيقِ المَجنُونِ بِالرُّعْب".

فِى مَيْدَانِ بُطرُس، حَيْثُ بُنِىَ وَلَكِن مُؤَخَّرًا،

انتَصَبَ أَحَدُ القُصُورِ، أَكْثَرَ ثَرَاءً وَفَخَامَة،

نَهَضَ بِجَانِبِ مَدْخَلِه أَسَدَانِ هَائِلاَن،

مَخَالِبُهُمَا مَرفُوعَةٌ، كَمَا لَو أَحيَاء،

وَيفْجِينِى الذِى انجَرَفَ بِطَرِيقَةٍ مَا

إِلَى هَذَا المَكَانِ القَرِيبِ الرَّائِع،

وَالذِى كَانَ خِلوًا مِنَ الكَرَاهِيَة،

جَلَسَ جَامِدًا- عَلَى وَجهِهِ لَونُ المَوت-
مُنفَرِجَ السَّاقَينِ فَوْقَ الحَيَوَانِ الرُّخَامِى..
لَم يَلحَظ استِهتَارَ الأموَاجِ الغَاضِبَة
التِى تَلاَطَمَت فِى الأَسفَل،
كَأَنَّه لَم يَرَهَا تَشبُّ إِلَى أعلَى
وَشَرِهَةً، جَائِعَةً، تَلعَقُ قَدَمَيه،
لاَ وَلَم يَسمَع الرِّيحَ العَاوِيَة
التِى رَمَت فِى انحِرَافِهَا بِقُبَّعَتِه بَعِيدًا
وَلاَ أَحَسَّ بِالمَطَرِ يَنهَمِرُ عَلَى وَجْهِه...
يَائِسًا، حَملَقَ أَمَامَه حَيثُ ارتِفَاعُ الجِبَال.
تَعَالَت كُتَلُ المَوْجِ الرَّهِيبَة،
جَارِفَةً فِى طَرِيقِهَا الكُل،
حَيثُ تَطفُو بَقَايَا حُطَامِ سَفِينَةٍ غَرِيقَة،
مُبَعثَرَةً بِفِعلِ العَاصِفَة...
لَم يَكُن الأمرُ سَلاَمَتَه هُوَ، فَليَكُن ذَلِكَ مَلحُوظًا،
فَقَد خَشِىَ يَقجِينُنَا مِن- كَلاَّ

بَعيدًا عَن...

وَهُنَاكَ عِنْدَ الخَليج

انتَصَبَ كُوخٌ فِى ظِلِّ الصَّفصَاف،

مَكَانٌ ضَيِّقٌ، خَلفَ سِيَاجٍ مُلتَوٍ بَاهِت،

فِيهِ عَاشَت حَبِيبَتُه "بَارَاشَا" وَأُمُّهَا الأَرمَلَة

وَحِيدَتَينِ مَعًا...

آهِ، يَا إِلَهِى! أَكَانَ ذَلِكَ حُلمًا

أَم أَنَّ حَيَاتَنَا كَانَت دُعَابَةً أُخرَى مِن دُعَابَاتِ السَّمَاء

وَالإِنسَانُ مَن يَدفَعُ الثَّمَن،

أَكَانَت وَهمًا، عَدَمًا؟...

كَإِنسَانٍ مَسحُورٍ مُكَبَّل،

كَكَائِنٍ ضَائِعٍ فِى العَالَم، يَجلِسُ هُنَاك،

لاَ يَرَى شَيئًا، غَيرَ المِيَاهِ المُحِيطَةِ بِه،

وَلاَ قُوَّةَ لَدَيهِ حَتَّى لِيَتَحَرَّكَ أَو يَقِف!

وَعَالِيًا فَوقَه- لَم يَرهَب الجَمِيع

مَعَ السُّيُولِ المُزبِدَةِ وَالشَّوَاطِئِ المَغمُورَة

وَأَصَمَّ إِلَى زَئِيرِ العَاصِفَةِ الثَّائِر-
اعتَلَى التِّمثَالُ بِذِرَاعٍ مَفرُودَة،
حِصَانًا برُونزِيًا يُحلِّقُ فِي مَهَابَة.

الجُزء الثَّانى

أَخِيرًا، مَعَ دَمَارٍ وَحشِيٍّ كَامِل
وَمُرْهَقًا بِهَذَا العُنفِ البَالِغ،
وَبَعدَ أن خَمَدَ الآنَ عَطَشُه وَرُعبُه،
لَم يَتَرَدَّد "النِّيڤَا" مَرَّةً أُخرَى
وَلَكِن بِتَجَاهُلٍ عَمْدِى
فَرَّ، مُبَعْثِرًا غَنَائِمَه.
وَهَكَذَا، رُبَّمَا اقتَحَمَ قَاطِعُ طَرِيقٍ يَحْمِلُ وِشَاحَ القَانُون
وَسَفَّاحُونَ وَلُصُوصٌ إِحدَى القُرَى،
يَسلِبُونَ وَيَنهَبُونَ فِيهَا
يَصِيحُونَ وَيَلْعَنُونَ وَيُحَطِّمُونَ وَيُطلِقُونَ النَّار

لِيَفِرُّوا فِى النِّهَايَةِ مُنْهَكِينَ، وَتَقرِيبًا مَهزُومِين،

وَقَد تَضَاءَلَت ثِقَتُهُم بِالخَوفِ مِنَ الأسر،

تَارِكِينَ خَلفَهُم الجُزءَ الأَكبَرَ مِن غَنِيمَتِهِم...

انخَفَضَ المَاء، وَعِندَمَا لاَحَظَ ذَلك،

أسرَعَ يفجِينِى، بِأَقصَى سُرعَة،

قَادَه المَنظَرُ الذِى رَآه لِلتَّو،

وَلَكِن دُونَ أن يُصَدِّقَه تَمَامًا،

بِالأَلَمِ وَالأمَل،

إِلَى حَيثُ لاَ يَزَالُ النَّهرُ فِى مَرقَدِه

مُهتَاجًا، مُختَالاً بِالنَّصر،

وَضَرَاوَتُه الغَاضِبَةُ لَم تَهدَأ،

كَمَا لَو كَانَ يَتَغَذَّى بِنِيرَانٍ كَامِنَة،

لاَ يَزَالُ يَحتَرِقُ، يَتَقَاذَفُ، يُعوِلُ، يَصخب،

لاَ يَزَالُ يُرغِى

كَمُقَاتِلٍ فَرَّ مُؤَخَّرًا لاَهِثًا مِن أرضِ المَعرَكَة..

---

* الكوبك: عملة روسية، تساوى واحدًا من مائة من الروبل.

يَلمَحُ يفجينِى الآنَ زَورَقًا صَغيرًا،
وَيُسرِعُ- لِنِدَاءِ صَاحِبِ الزَّورَق- إِلَى حَيْثُ رَسَا.
عَشَرَةُ كُوبكَات تَكفِى*:
وَإِذ يُوَافِق عَلَى نَقلِه إِلَى الجَانِبِ الآخَر،
يَتَوَلَّى الرَّجُلُ المُهمَّةَ بِجِدِّيَّة،
وَهوَ لَيْسَ وَحدَه كَى يَفقِدَ أَعصَابَه بِسُهُولَة.

كَثِيرًا مَا سَلَكَ المَرَاكِبِىُّ الخَبِير
هَذَا الطَّرِيقَ الخَطِرَ، وَاستَخدَمَ مَجَاذِيفَه،
وَكَثِيرًا مَا كَانَت الأَموَاجُ عَلَى وَشْكِ ابتِلاَعِ الزَّورَق
وَهوَ يَندَفِعُ بِقُوَّةٍ إِلَى صَدعٍ بَيْنَ قِمَّتَين،
قَبْلَ الوُصُولِ إِلَى الشَّاطِئ.
فِى رُعبٍ وَهَلَع
حَدَّقَ يفجينِى حَوَالَيه،
لأَنَّ هَذِهِ الشَّوَارِعَ التِى عَرفَهَا جَيِّدًا
تَحمِلُ الآنَ وَجهًا غَيرَ مَألُوف...

ما الخَطِيئَة؟...

فالدَّمَارُ يَلُفُّ كُلَّ شَىء:

بعضُ البُيُوتِ سُوِّىَ بِالأرض،

البعضُ تَمَايَلَ، وَقَد تَحَطَّمَت أبوَابُه وَنَوَافِذُه،

البَعضُ انتَقَلَ مِن مَكَانِه،

وَارتَمَى مُبَعثَرًا فِى مَكَانٍ قَرِيب،

القَتلَى، كَمَا فِى أرضِ مَعرَكَة...

شبهَ مَذهُولٍ، جَرَى يقجِينِى إلَى الأمَام-

بَدَت الشَّوَارِعُ التِى عَبَرَهَا مُعْتِمَة،

خَالِيَةً مِن الكُلِّ عَدَا عَذَابِه-

إلَى حَيثُ يَنتَظِرُ القَدَرُ ضَارِيًا،

كَمَا بِرِسَالَةٍ ظَلَّت مُغلَقَةً حَتَّى يَفُضَّهَا هُوَ،

مَعَ أخبَارٍ كَانَ الأفضَل كِتمَانُهَا...

هُنَا الآنَ كَانَت ضَاحِيَةُ المَدِينَة.

بِأنفَاسٍ لاَهِثَةٍ تَوَقَّفَ لِيَرَى،

وَمَفتُوحًا لِلرُّؤيَةِ، امتَدَّ الخَلِيجُ رَمَادِيًا مُنعَزِلاً.

بَيتُهَا، كَمَا يَعلَمُ، كَانَ يَقُومُ بِجِوَارِه...

فَقَط أَيْنَ كَان؟ أين...

تَحَرَّكَ مُبتَعِدًا،

وَعَادَ مُتَعَثِّرًا فِى فَزَعٍ شَدِيد.

كَانَ هَذَا هُوَ المَكَان،

تَنمُو صَفصَافَةٌ فِى المَوضِعِ المُجَاوِر...

هَل انجَرَفَ البَيتُ وَالسِّيَاجُ بَعِيدًا بِفِعلِ الفَيَضَان؟..

سَارَ بِخُطوَاتٍ مُتَبَاطِئَةٍ فِى المَكَانِ المُحِيط..

وَتَمَزَّقَت الكَلِمَاتُ الوَحشِيَّةُ التِى أصدَرَهَا

فِى تَشَنُّجَات، وَنَوبَاتِ ضَحِكٍ مُتَتَالِيَة..

مَا بَعدَ ذَلِكَ، كَانَ وَقتًا جَمِيلاً

كَغِطَاءٍ مِن ضَبَابِ المَسَاءِ يَهوِى عَلَى المَدِينَةِ المُتعَبَة.

لَم يَنَم مِن سُكَّانِهَا أَحَدٌ، مَعَ ذَلِك.

وَبَدَلاً مِن ذَلِك، حَاوَلُوا بِالحَدِيث

ان يهدئوا قُلُوبَهُم، وَهُم يُنَاقِشُونَ ذَلِكَ اليَومَ العَاصِف

وعندَمَا أَتَت مُنسَلَّةً أَشِعَّةُ الصَّبَاحِ المُشرِق

خارِجَةً مِنَ السُّحُبِ الشَّاحِبَة،

لم تَجِد مِنَ الدَّمَارِ سِوَى أَثَرٍ ضَئِيل،

وَأردِيَةُ الفَجرِ القُرمُزِيَّةُ تَكشِفُ خَرَابَ الأمس.

استُؤنِفَت الحَيَاة،

وَعَادَت إِلَى طَرِيقِهَا مِن جَدِيدٍ فِى سَلاَم.

أسرَعَ شَعْبُ المَدِينَة،

فِى لاَمُبَالاَةٍ وَلاَ اكتِرَاثٍ كَمَا مِن قَبل،

إِلَى النُّزُولِ فِى الشَّوَارِعِ.

وَفِى سَاعَةٍ مُبَكِّرَة،

كَانَ البَاعَةُ الجَائِلُونَ وَكَتَبَةُ الدَّوَاوِين مُهتَاجِين.

الأَوَائِل، مُهَذَّبِينَ وَإِن كَانُوا حَازِمِين،

لِيَفتَحُوا المخَازِنَ التِى نَهَبَهَا "النِّيڤَا" وَبَدَّدَهَا تَمَامًا.

وَأَسرَعُوا لِيُعَوِّضُوا خَسَائِرِهَا

عَلَى حِسَابِ التُّجَّار.
وَكَانَ خُوستُوف،
وَهوَ كُونت وَشَاعِرٌ مَدَّاحٌ مَحبُوبُ الحُكَّام،
قَد شَرَعَ يُغَنِّى قَصِيدَةً خَالِدَةً رَنَّانَة
عَنِ المِحَنِ التى عَانَتهَا مَدِينَةُ بُطرُس.
أمَّا يفْجِينِى البَائِسُ- مَا أكثَرَ مَا يَدعُو إِلَى الرِّثَاء-
فَقَد استَسلَمَ عَقلُه المُشَوَّشُ- وَا أسَفَاه-
لِلصَّدمَةِ وَالأسَى.
وَطُوَالَ أيَّامٍ، طَافَ المَدِينَةَ وَحِيدًا،
وَفِى أُذُنِه عَوِيلُ الرِّيَاحِ وَصَخَبُ "النِّيفَا".
مُعذَّبًا كَانَ بِخَوفٍ مَجهُولٍ وَتَفكِيرٍ هَشِيم،
وَمُطَارَدًا بِأحلاَمٍ مُتَشَنِّجَة.
أسَابِيعُ أتَت وَمَرَّت، شَهر،
وَظَلَّ يَطُوفُ الشَّوَارِعَ بِلاَ هَدَف.
أحَاطَتهُ الكَآبَةُ وَطَوَّقَته.
لَم يَعُد إِلَى شَقَّتِه مِن جَدِيد،

واجرّها إلَى شَاعرٍ شَابٍّ فقير

كمَا لَم يُفكِّر فِى استِردَادِ أَشيَائه أبَدَا

هل غبطَ نَفسَه عَلَى مَا يَرتَدِى.

وسرعَانَ مَا أَصبَحَ غَرِيبًا عَن العَالَمِ كُلِّه.

تسَكَّعَ فِى النَّهَار،

ونَامَ عَلَى الرَّصِيفِ فِى اللَّيل.

كَانَ مَنظَرًا يُرثَى لَه،

مَلاَبِسُه أَسمَالٌ بَالِيَة،

وَيَأكُلُ اللُّقَيمَاتِ الَّتِى تُرمَى- شَفَقَةً- إِلَى يَدَيه.

وَكَمَا نِتَاجِ نِكَاحٍ شِرِّيرٍ، كَانَ يُرجَمُ بِالحِجَارَة،

وَكَثِيرًا أيضًا مَا كَانَ يُلسَعُ بِالسِّيَاط،

حِينَ كَانَ يَعبُرُ الشَّوَارِعَ بِلاَ انتِبَاهٍ لِلمَركَبَاتِ المَارَّة،

غَائبًا عَن كُلِّ مَا حَولَه، مَذهُولاً،

أَصَمَّ بِفِعلِ أَلَمِه،

بَل هَارِبًا- بِلاَ وَعىٍ- مِنه...

هَكَذَا جَرجَرَ أَيَّامَه فِى شَقَاء،

لَيسَ بِإِنسَانٍ، وَلاَ حَيَوَانٍ، وَلاَ شَبَحٍ، بِصُورَةٍ حَقِيقِيَّة،
وَلاَ حَتَّى بِكَائِنٍ حَى...

ذَاتَ يَوم

حِينَ أَخْلَى الصَّيفُ المَاضِى مَكَانَه- فِى مَوعِدِه- لِلخَرِيف،
استَلقَى مُستَغرِقًا فِى النَّومِ عَلَى رَصِيفِ المِينَاء..
عَوَت وَانتَحَبَت أمواجُ "النِّيفَا" الرَّمَادِيَّة
وَهىَ تُرَدِّدُ شَكْوَى مَا
وَفِى مُوَاجَهَةِ الخُطوَاتِ التِى تَدُقُّ فِى غَضَب
- كَمَن يُقَدِّمُ التِمَاسًا عَلَى بَابِ قُضَاةٍ مُتَشَدِّدِين
تَجَاهَلُوا شَكوَاه-
استَيقَظَ يقَجِينِى
وَمُوحِشًا كَانَ المَنظَرُ المُحِيطُ بِه:
مَطَرٌ مُرهَقٌ يَسَّاقَطُ قَطَرَات،
أعوَلَت رِيَاحُ الخَرِيف،

وجاءت جوَابًا علَيهَا صيحَةُ الحَارِسِ البَعِيد،

وهي تشُقُّ الظَّلاَم..

نهض علَى عجَل،

بلا وَعيٍ أينَ وجَدَ نَفسَه،

بل وَعَقلُه مُنزَعِجٌ بِالمَخَاوِفِ المَاضيَة،

التي يرَاهَا وَاضِحَة...

ترنَّحَ نَاهِضًا،

ثم توَقَّف، وَعَينَاهُ مُتَّشِحَتَانِ بِالرُّعب،

وَقد أصبَحَت مَلاَمِحُه مُظلِمَةً وَمُنهَكَة،

فمَا رَآه تَركَه ذَاهِلاً:

أمَامَه هُنَاكَ انتَصَبَ قَصرٌ مهِيب،

وَأسَدَانَ مِن حَجَرٍ يَشُدَّانِ الانتِبَاه

قَامَا عَلَى شُرفَتِه وَأَحَاطَا بِجَانِبَى البَوَّابَة،

فِيمَا فَوقَ صَخرَةٍ، مُدَعَّمًا بِالسَّلاَسِل،

حَلَّقَ التِّمثَالُ المُخِيفُ بِاختِيَالٍ، فَارِدًا ذِرَاعَه،

عَلَى حِصَانٍ مِن برُونْز.

ارتَعَشَ يقْجِينِى.

وَمِن جَدِيدٍ سَمَّرَه هُنَاكَ الألَمُ القَدِيمُ السَّاحِقُ القَاسِى.

وَبِعَقْلٍ صَافٍ رَأى مِن جَدِيد

الأموَاجَ، ضَارِيَةً، تَندَفِعُ حَولَه

وَتَهِسُّ وَتَزأَرُ فِى حِقد.

تَعَرَّفَ عَلَى المَيدَانِ، وَالبَيْتِ، وَالأسَدَين،

وَعَلَى نَفسِهِ وَقَد عَلاَ- بِفِعلِ الظَّلاَمِ المُحِيط-

فَوقَهُم جَمِيعًا مُتَحَرِّرًا وَمُستَقِلاً،

إِنسَانًا- حِينَمَا أذعَنَ لإِرَادَتِهِ القَدَر-

اكتَشَفَ المَدِينَةَ عَلَى البَحْر...

مُلتَفًا بِاللَّيلِ، كَم هُوَ مُخِيف!

إِلَى أىِّ عُمقٍ غَاصَ فِى الخَيَال!

وأيَّةُ قُوَّةٍ رَهِيبَةٍ تَكمُنُ فيه!

وحِصَانُه، أَيَّةُ نَارٍ فِى عَينَيه!

إلَى أينَ تُحَلِّقُ فِى الصَّقِيعِ أيُّهَا الحِصَان

وَأينَ سَتُؤمَرُ بِالتَّوَقُّف؟

وَهَكَذَا، أَيُّهَا العَاهِلُ العَظِيم

يَا قُربَانَ القَدَرِ، وَسَيِّدَ اختِيَارِه،

أجبَرتَ رُوسيَا، بِلِجَامٍ حَدِيدِى،

عَلَى أن تَشبَّ فَوقَ الهُوَّة!

حَولَ القَاعِدَة، اتَّخَذَ يفَجِينِى البَائِسُ المَهزُول،

مُكتَئِبًا- طَرِيقَه،

وَنَظرَتُه مُحَدِّقَةٌ فِيه،

مَن امتَلَكَ فِى هَيمَنَةٍ نِصفَ العَالَم،

وَيَحكُمُه بِالرُّعب.

أَحَسَّ صَدرُه بِالضِّيق.

وَعَلَى حَاجِزٍ مِنَ القُضبَان

ضَغَطَ وَجهَه المُشتَعِل،

لَكِنَّ دَمَه ظَلَّ يَحتَرِق،

وَرَاحَ قَلبُه يَركُضُ وَيَدُقُّ بِجنُون...

وَاهِنَ الأعضَاءِ، وَحْشِيَّ العَينَين،

أطبَقَت أصَابِعُه عَلَى التِّمثَالِ المُتَغَطرِسِ المَقِيت،

مُتَجَهِّمًا، وَهوَ يُوَاجِهُه،

وكَمَا إنسَانٍ جُن، انتَصَبَ مُرتَعِشًا،

وَفِي صَوتٍ مُرتَجِفٍ مُتَكَسِّر،

خَرَجَ وَاهِنًا مَعَ هزَّةِ غَضَبٍ بَالِغ:

"حَسَنًا، أَيُّهَا المُبدِعُ الأعظَم، حَسَنًا!

انتَظِر فَحَسب، وَشَاهِد!..."

كَانَ ذَلِكَ كُلَّ مَا استَطَاعَ أن يَنْطِقَ إلَيهِ بِه،

وَتَوَقَّف،

وَمضرُوبًا بِالرُّعبِ، استَدَارَ وَفَر:

كانَ القَيصَرُ يَتَفَرَّجُ عَلَيه...

تلكَ النَّظرَةُ المُحَدِّقَةُ الحَانِقَةُ التِى لَم تَترُكه أَبَدًا،

جعَلَته يُسرِعُ خُطَاه.

عَبرَ المَيْدَانِ الخَالِى رَكَضَ يفْجِينِى

وتَرَاءَى لَه أنَّه يَسمَعُ قَصفَاتِ رَعدٍ هَائِلَة

مُتَزايدَةً قَوِيَّة،

ويُحِسُّ بِأَرضِ الشَّارِعِ تَرتَج

تَحتَ حَوَافِرِ الحِصَانِ الثَّقِيلَة.

وَهُنَاكَ، خَلفَه، مَشدُودَةً بِإِحكَامٍ إِلَى الظَّلاَم،

بَانَت عَلَى أَشِعَّةِ القَمَرِ الشَّاحِبَةِ الهَزِيلَة،

يَدٌ ارتَفَعَت فِى تَحذِير،

لَقَد انطَلَقَ الفَارِسُ البرُونزِيُّ الرَّهِيبُ خِلاَلَ اللَّيل

حَتَّى الصَّبَاح،

وَحَيثُ شَدَّ يفْجِينِى أَبَدًا خُطوَاتِه، مَرعُوبًا،

وَتَجَوَّلَ أَبْكَم،

انطَلَقَ الفَارِسُ البرُونزِيُّ المُتَرَجِّلُ فِى جُنُون-

وَعَلَى حَاجزٍ مِنَ القُضبَان

ضَغَطَ وَجهَه المُشتَعِل،

لَكِنَّ دَمَه ظَلَّ يَحتَرِق،

وَرَاحَ قَلبُه يَركُضُ وَيَدُقُّ بِجُنُون...

وَاهِنَ الأعضَاءِ، وَحْشِيَّ العَينَين،

أطبَقَت أصَابِعُه عَلَى التِّمثَالِ المُتَغَطرِسِ المَقِيت،

مُتَجَهِّمًا، وَهوَ يُوَاجِهُه،

وَكَمَا إنسَانٍ جُن، انتَصَبَ مُرتَعِشًا،

وَفِي صَوتٍ مُرتَجِفٍ مُتَكَسِّر،

خَرَجَ وَاهِنًا مَعَ هزَّةِ غَضَبٍ بَالِغ:

"حَسَنًا، أيُّهَا المُبدِعُ الأعظَم، حَسَنًا!

انتَظِر فَحَسب، وَشَاهِد!..."

كَانَ ذَلِكَ كُلَّ مَا استَطَاعَ أن يَنْطِقَ إلَيهِ بِه،

وَتَوَقَّف،

وَمَضرُوبًا بِالرُّعبِ، استَدَارَ وَفَر:

كانَ القَيصَرُ يَتَفَرَّجُ عَلَيه...

تلكَ النَّظرَةُ المُحَدِّقَةُ الحَانِقَةُ التِى لَم تَترُكه أَبَدًا،

جعَلَته يُسرِعُ خُطَاه.

عَبرَ المَيْدَانِ الخَالِى رَكَضَ يفْجِينِى

وتَرَاءَى لَه أنَّه يَسمَعُ قَصفَاتِ رَعدٍ هَائِلَة

مُتَزايدَةً قَوِيَّة،

ويُحِسُّ بِأرضِ الشَّارِعِ تَرتَج

تَحتَ حَوَافِرِ الحِصَانِ الثَّقِيلَة.

وَهُنَاكَ، خَلفَه، مَشدُودَةً بإحكَامٍ إلَى الظَّلاَم،

بَانَت عَلَى أشِعَّةِ القَمَرِ الشَّاحِبَةِ الهَزِيلَة،

يَدٌ ارتَفَعَت فِى تَحذِير،

لَقَد انطَلَقَ الفَارِسُ البرُونزِيُّ الرَّهِيبُ خِلاَلَ اللَّيل

حَتَّى الصَّبَاح،

وَحَيثُ شَدَّ يفْجِينِى أبَدًا خُطوَاتِه، مَرعُوبًا،

وَتَجَوَّلَ أبْكَم،

انطَلَقَ الفَارِسُ البرُونزِيُّ المُتَرَجِّلُ فِى جُنُون-

إِذ دَهَمَه اللَّيلُ- فِى مُطَارَدَةٍ رَعْدِيَّة.

وَمُذ ذَاك، حِينَ كَانَ يَتَصَادَف

- غَيرَ وَاعٍ أَبَدًا إِلَى أَينَ ذَهَب-

أَن يَعبُرَ ذَلِكَ المَيدَانَ، مُشَتَّتًا، مُتَزَايِدَ القَلَق،

كَانَ يَقِفُ هُنَاك، مُرَوَّعًا وَضَائِعًا،

وَتَضْغَطُ يَدُه عَلَى قَلبِهِ بِسُرعَة،

لِتُسَكِّنَ الأَلَمَ فِيه،

وَعَلَى وَجهِهِ مَلاَمِحُ المَرَض؛

ثُم فِى فَزَعٍ يُحَرِّكُ قُبَّعَتَه، وَيَنسَلُّ بَعِيدًا،

لاَ لَم يَرفَع بَصَرَه أَبَدًا...

جَزِيرَةٌ مَهجُورَةٌ تَستَلقِى بَعِيدًا عَنِ الشَّاطِئ.

فِى نِهَايَةِ اليَوم

قَد يَتَّخِذُ صَيَّادٌ مُتَأَخِّرٌ طَرِيقَه إِلَيهَا فِى قَاربِه،

وَصَامِتًا، يَطهُو عَشَاءَه الهَزِيلَ عَلَى الشَّاطِئ

فى غسَقِ المَسَاء،

او يَختَارُهَا أحَدُ الكَتَبَةِ لِلنُّزهَةِ يومَ السَّبت.

عَارِيَةٌ مِنَ الأشْجَارِ هِىَ الجَزِيرَة،

لاَ أعشَابَ تَتَبَرعَمُ فِى أرضِهَا.

اتَى الفَيَضَانُ بِكُوخٍ هُنَاك،

وَحَطَّ، مَعزُولاً، فَوقَ المَاء

كَأصلِ شَجَرَةٍ شَائِهٍ مُعتِم

حَتَّى الرَّبِيع، حِينَمَا يَنسَاقُ بَعِيدًا.

العَلاَمَةُ القَبِيحَةُ التِى حَمَلَهَا مِنَ الأموَاج،

وَالتِى- عَلَى مَهلٍ- صَنَعَت دَمَارَه وَفَنَاءَه..

بِجَانِبِهَا، استَلقَى رَجُلِى المَجنُونُ، مَيِّتًا،

وَهُنَاك- طَيَّبَ اللهُ ثَرَاه- دُفِن.

١٨٣٣

الغجر

يَتَجَوَّلُ غَجَرُ بِيسَارَابيَا فِى حُشُودٍ صَاخِبَة...

وَعَلَى النَّهرِ يُقِيمُونَ بُيُوتَهُم فِى خِيَامٍ رَثَّة،

بَاحِثِينَ عَن غِطَاءٍ مِن نَسَائِمِ اللَّيلِ البَارِدَة.

فِى الهَوَاءِ الطَّلقِ نَومُهُم هَادِئ؛

كَمَا الحُرِّيَّة إِقَامَتُهُم سَعِيدَة...

وَتَحتَ حَمَائِلِ الأَبسِطَةِ المُدَلاَّةِ هُنَاك

تَتَقَافَزُ شُعلاَتُ نَارٍ مُتَوَهِّجَة

تَتَمَايَلُ ظِلاَلُهَا وَتَلعَقُ العَجَلاَت؛

بِجَانِبِ الوَهَجِ، تُعِدُّ أُسرَةٌ الطَّعَام،

وَهِىَ مُجتَمِعَةٌ لِلعَشَاء؛

خَلفَ الخَيمَةِ يَستَلْقِي دُبٌّ أَليف؛

بِالقُربِ مِنه تَرعَى الخُيُولُ طَلِيقَة...

السَّهلُ المُحِيطُ يَمتَلِئُ بِالحَيَاة؛

وَفِي الفَجْرِ يُغَادِرُ الغَجَرُ أرضَ مُخَيَّمِهِم؛

يَمتَزِجُ رَنِينُ السِّندَان

بِصَوتِ صُرَاخِ الأطفَالِ وَغِنَاءِ النِّسوَة

ثُم، دفعَةً وَاحِدَةً، يَحلُّ السُّكُونُ عَلَى المُخَيَّم؛

يُرَدِّدُ الهُدُوءُ الحَالِمُ- مِن حِينٍ لآخَر-

صَهِيلَ حِصَان

أو نُبَاحًا مَسعُورًا لِكَلبِ الحِرَاسَة.

اللَّيلَةُ السَّاكِنَةُ مَشدُودَةٌ بِإِحكَامٍ إِلَى النَّوم؛

لاَ مِصبَاحَ يُضِيءُ، وَلاَ يُومِضُ ضَوء؛

وَيُرسِلُ القَمَرُ مِن الأعَالِي

وَمِيضًا أبيَضَ غَرِيبًا كَاللُّؤلُؤ.

بِجَانِبِ إِحدَى الخِيَام،

يَجلِسُ أرِقًا رَجُلٌ عَجُوز،

مُنحَنِيًا علَى نَارِ المُخَيَّمِ الهَامِدَة،

لاَ يَزَالُ الفَحمُ دَافِئًا؛

وَنَظرَتُه الضَّائِعَةُ مُحَدِّقَةٌ فِى السَّهل،

وَامتِدَادُه الفَسِيحُ مَلفُوف

بِالضَّبَابِ اللَّبَنِىِّ الكَثِيفِ لِلمَسَاء...

وَهوَ يَنتَظِرُ- صَامِتًا صَابِرًا-

ابنَتَه الشَّابَّة: فَكَثِيرًا مَا تَكُونُ زَمفِيرًا وَحدَهَا فِى الخَارِجِ؛

لاَ خَوفَ يَنتَابُهَا مِن أخطَارِ الظَّلاَمِ الوَحشِى

فَهىَ تَعشَقُ الحُرِّيَّة.

لَكِنَّ قَوسَ ضَوءِ القَمَر، المُوشِكَ عَلَى الضَّيَاع،

يَستَعِدُّ لِلرَّحِيل؛

تَأخَّرَ الوَقتُ، وَهِىَ لاَ تَظهَر...

وَيَبرُدُ طَعَامُ العَجُوزِ الذِى لَم يُمَس فِى طَبَقِه.

ها هِيَ الآن...

وخَلفهَا يأتِي رَجُلٌ غَرِيبٌ، يَتبَعُهَا.

"عَثرتُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، خَلفَ الرَّبوَة"،

تُخبِرُ أبَاهَا، مُرَحِّبَةً بِه فِي حَرَارَة.

"وَعِندَمَا رَأيتُ أنَّه بِلاَ دِثَار،

دَعَوتُه لِيُشَارِكَنَا خَيمَتَنَا.

وَيَقُولُ إنَّه سَيَكُونُ سَعِيدًا

بِأن يَكُونَ وَاحِدًا مِنَّا،

إنسَانًا مُتَحَرِّرًا مِن كُلِّ القُيُود.

سَيَأتِي، أَلِيكُو سَيَأتِي حَيثُمَا آخُذُه.

هُوَ طَرِيدٌ يَا أبِي.

رَحِّب بِه يَا أبِي، أرجُوكَ، فِي بَيتِنَا".

العجُوز: إنني أرحب به بِكُلِّ سُرُورٍ أُرَحِّبُ بِه
يُمكِنُكَ أن تَظَلَّ مَعَنَا حَتَّى الصَّبَاحِ أو أكثَر،
فَلَكَ الأمر..
عَانِق حَيَاتَنَا الرَّحَّالةَ الحُرَّة، إذ تَهجُر حيَاتَك،
وَستَكُونُ وَاحِدًا مِنَّا، أيُّهَا الشَّابُّ الطَّيِّب
تُشَارِكُنَا مُشَارَكَةً كَامِلَةً كُلَّ مَا نَملِك،
رغمَ أنَّه لَيسَ كَثِيرًا...
فِى الفَجرِ سَنَنسَلُّ بِقَافِلَتِنَا،
وَهُنَاكَ غُرفَةٌ لَك.
تَخَيَّر أيَّةَ مُهِمَّةٍ، كَيفَمَا تَكُون،
وَهِىَ لَك عَلَى أن تَكُونَ مُنَاسِبَة:
غَنِّ الأُغنِيَات، أو اطرُق المَعدَن،
أو تَقُودُ دُبًّا وَهوَ فِى قَيدِهِ فِى المَكَانِ المُجَاوِر-
أَعمَالُنَا اليَومِيَّةُ كَثِيرَة.

أَلِيكُو: إنَّنِى أنضَمُّ إلَيكُم.

زَمفِيرَا: هُوَ لِى،
وَلاَ أحَدَ يَستَطِيعُ أن يَأخُذَه مِنِّى...
لَكِن كَم السَّمَاءُ كَئِيبَة.
انظُر- لَقَد أفلَ القَمَر،

وَاكتَسَى السَّهلُ بِالضَّبَاب...
وَبِالرَّغمِ مِنِّى، هَزَمَنِى النَّوم...

●●●

يَبزُغُ الضَّوء..
وَالعَجُوزُ يَتَمَشَّى حَولَ الخَيمَةِ النَّائمَةِ عَلَى مَهَل
" زَمفِيرَا، انهَضِى! وَأَنتَ يَا ضَيفِى!
فَالشَّمسُ تَزحَفُ عَلَى التِّلاَلِ إِلَى أَعلَى.
لَقَد حَانَ الوَقت! السَّمَاوَاتُ مُشرِقَة.
هَيَّا اترُكَا فِرَاشَ الكَسَل!..."
وَيَندَفِعُ الشَّعبُ الغَجَرِىُّ خَارِجَ خِيَامِهِ فِى صَخَب،
يَلُفُّونَهَا، مُتَلَهِّفِينَ عَلَى تَحمِيلِ قَوَافِلِهِم
وَأَن يَكُونُوا عَلَى الطَّرِيق..
يَبدءُونَ، بَحرًا مِنَ الحَرَكَة، مَشدُودِى الأَجسَاد،
فِى الانتِشَارِ عَبرَ السَّهلِ، مُندَفِقِينَ لِلأَمَام:
رِجَالٌ، زَوجَاتٌ، شَبَابٌ وَشُيُوخُ القَبِيلَة
حَشدٌ بَطِىءٌ لَكِنَّه مُبتَهِجٌ وَمَرِحٌ وَسَعِيد؛
بِجَانِبِ أَسيَادِهَا تَمضِى الكِلاَب
وَهِىَ تَحمِلُ فِى السِّلاَلِ الأَطفَالَ المُبتَهِجِين؛
الصَّخَبُ وَالصِّيَاح، وَبُرهَةٌ مِنَ الغِنَاءِ الغَجَرِى؛

صَرخَةٌ عَالِيَةٌ مِن أَحَدِ الدِّبَبَة،
قَعقَعَةُ قُيُودِهِ الرَّتِيبَة؛
النِّسوَةُ فِى أَسمَالٍ مُبَهرَجَة؛
حِفنَةٌ مِنَ الأَطفَالِ حُفَاةِ الأقدَامِ، أَنصَاف عَرَايَا،
الكِلاَبُ تُرسِلُ أَلسِنَتَهَا فِى غَضَبٍ مُفَاجِئ،
صَلِيلُ عَجَلاَتِ العَرَبَة؛
أَنِينُ مَزَامِيرِ القِرَب؛..
الكُلُّ فِى حَالَةِ اهتِيَاج،
فِى ضَجِيجٍ وَحشِىٍّ، لَكِنَّه مَلِىءٌ بِالحَرَكَةِ وَالحَيَاة،
مُختَلِفٌ عَن أَسَالِيبِنَا الهَزلِيَّةِ الفَاتِرَة،
وَالهَزِيلَةِ المَيِّتَة، مِثلَمَا هِىَ مُوحِشَةٌ أَغَانِى العَبِيد!

● ● ●

حَدَّقَ أَلِيكُو فِى السَّهل،
وَحُزنٌ غَامِضٌ يُحبِطُ رُوحَه.
فَمِن حَيْثُ جَاءَه، كَانَ قَلِيلاً مَا يُرِيد،
بَل، الأَكثَر، أَنَّه ارتَاعَ أَن يَشرَح.
فَلَدَيه زَوجَةٌ، زَمفِيرَا ذَات العَينَينِ السَّودَاوَين،
وَهوَ حُر،
وَهُنَاك- الآنَ- سَمَاوَاتٌ فَوقَه أَكثَر صَفَاءً،

مُضَاءَةٌ بِشَمسِ السَّخَاءِ وَالرَّوعَةِ الشَّمَاليِّين.
فَلمَاذَا استَسلَمَ إذًا لِلكَآبَةِ؟
وَأَيٌّ قَلَقٍ غَامِضٍ أحبَطَه؟
طَائِرٌ سَعِيد
مَن يَطُوفُ امتِدَادَ السَّمَاءِ المَعزُول،
وَقُبَّتَهَا الزَّرقَاءَ المُشرِقَة!
مِن أجلِ مُقَامٍ صَيفٍ وَاحِدٍ فَحَسب،
تَبنِى بَيتَكَ المُتَدَاعِى.
وَعَلَى غُصنٍ فِى غَابَةٍ أو فِى العَرَاء
تَجلِسُ نَاعِسًا طَوَالَ اللَّيل
وَحِينَمَا تَسمَعُ استِدعَاءَ الله لِلصَّبَاح،
تُحَيِّى الشَّمسَ المُشرِقَة بِالغِنَاء.
بَعدَ مُرُورِ أيَّامِ الرَّبِيعِ الرَّائِعَة
وَالمَوتِ الحَزِينِ لِلصَّيفِ الحَار
يَأتِى الخَرِيف،
مُجَمِّعًا السُّحُبَ الرَّمَادِيَّة
فِى السَّمَاوَاتِ الكَئِيبَةِ الضَّبَابِيَّة.
وَنَنقَلِبُ شَاحِبِى القُلُوب، مُنهَكِين...
أيُّهَا الطَّائِرُ الفَرِح!

بِرَشَاقَةٍ تَنطَلِقُ عَبرَ البِحَار،
فِى ابتِهَاجٍ وَمَرَح
لِتَسكُنَ المَنَاخَاتِ الشَّمَالِيَّةَ حَتَّى الرَّبِيع.
طَائِرُ تَرحَالٍ مُبتَهِج،
يَطِيرُ إِلَى شَوَاطِئَ تَستَلقِى بَعِيدًا عَن وَطَنِه،
كَانَ ذَلكَ المَنفَى لَدَينَا.
لاَ عُشَّ لَدَيه؛
أَحَسَّ بِالحُرِّيَّةِ فِى اتِّبَاعِ أَىِّ طَرِيق؛
وَلَم يُغرَم بِأَىِّ مَكَان؛
حَيثُمَا يَغلُبُه النَّومُ، يَنَام،
مُسلِمًا كُلَّ يَومٍ جَدِيدٍ يُولَدُ إِلَى قَلعَةِ الله.
وَأَبَدًا مَا لَمَسَت قَلبَه الخَاوِى
حُمَّى وَنَبضَ الحَيَاة،
بِرَغمِ أَنَّ إِغوَاءَ الشُّهرَةِ السَّاخِرَةِ وَالسَّاحِرَةِ البَعِيدَة
قَد تَحَرَّكَ فِى أَعمَاقِه- بَعضَ الوَقت
وَبِرَغم أَنَّ رُؤَى عَذبَةً لِلعَربَدَاتِ المُترَفَة
قَد وَاتَته لِلَحظَة
لَم يُبَالِ بِهَزِيمِ الرَّعد
وَكَثِيرًا مَا يَستَلقِى نَاعِسًا بِصُورَةٍ هَادِئَة

تَحتَ سَمَاوَات غَائِمَة مَاطِرَة
أَو تَحتَ الأَشعَّة الدَّافِئَة المَرِحَة لِشَمسِ الصَّبَاح.
وَرَافِضًا قُوَّةَ القَدَرِ المَاكِرِ الأعمَى،
وَاجَهَه بِلاَ خَوف.
وَلَكِن، آهِ، يَا إِلَهِى العَزِيز،
مُتَحَدِّيَةُ إِرَادَتَه، كَيفَ تَلاَعَبَت بِقَلبِه الأَهوَاء!
هَاجَت دَاخلَه،
وَمَا تَركَت رُوحَه القَلِقَةَ المُعَذَّبَةَ وَحدَهَا أَبدًا.
لَسَوفَ يَستَيقِظُ المَكبُوتُ وَالخَامِد،
مَتَى؟ انتَظِر وَانظُر..
لاَ أَشُك، فِى الحَال!

●●●

زَمفِيرَا: قُل لِى يَا حَبِيبِى:
هَذِه الأَشيَاءُ التِى خَلَّفتَهَا وَرَاءَك
أَلاَ تَفتَقِدُهَا؟

أَلِيكُو: قُولِى لِى، أَرجُوكِ:
مَاذَا خَلَّفت؟

زَمفِيرَا: أَتحتَاجُ إِلَى أَن أُذَكِّرَك؟-
أَرضَكَ وَبِلاَدَكَ وَأَهلَك.

أَلِيكُو: أَبَدًا.

أَنَا مُتَحَرِّرٌ مِنهُم بِلاَ نَدَم.

لاَ شَيءَ هُنَاكَ لأَفتَقِدَه

فَقَط لَو عَلِمتِ ذَلِك.

بِلاَدِي أَروِقَةٌ خَانِقَة

حَيثُ لاَ تَحمِلُ نَسَائِمُ الرَّبِيعِ العَطِرَةُ أَبَدًا

مِنَ المُرُوجِ وَالفَيَافِي المُزهِرَة

نَسمَةً تَصِلُهَا مِنَ الهَوَاءِ البَارِدِ الطَّلق؛

حَيثُ يُحتَقَرُ الحُبُّ كَكُلِّ المَشَاعِرِ الحَقِيقِيَّة،

وَيُذبَحُ الفِكرُ، وَتُبَاعُ الحُرِّيَّة،

حَيثُ يَتَوَسَّلُ الرِّجَالُ رَاكِعِينَ أَمَامَ أَصنَامِهِم،

بِصُورَةٍ مُخزِيَةٍ مِن أَجلِ الذَّهَبِ وَالقُيُود

مَاذَا خَلَّفتُ هُنَاك؟-

مُفزِعَةٌ وَخَائِنَة

كَلِمَاتُ الإِجحَافِ المَلعُونَة،

فَالعَارُ اكتَسَى بِثِيَابِ المَجْد

بَاضطِهَادِ العَامَّة!

زَمفِيرَا: وَالقَاعَاتُ المُتَوَهِّجَة

وَالمَوَائِدُ المُتخَمَةُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَاب،

الضَّوضَاءُ وَالأَضوَاءُ الكَثِيرَة،

الأَلعَابُ، الأَعيَادُ، وَالحَفَلاَت،

وَالوُجُوهُ المُشرِقَةُ لِعَذَارَى مُزَيَّنَاتٍ لاَبِسَاتٍ بِثَرَاء

اليكُو: حَيثُ لاَ حُبَّ، فَلاَ مَرَح

وَتَافِهَةٌ هِيَ الحَيَاةُ بِلاَ أَيَّةِ مُتعَة.

أَمَّا عَنِ العَذَارَى،

فَجَمَالُهُنَّ كَالصَّحرَاءِ المَيِّتَةِ، بِجَانِبِ جَمَالِك

الَّذِى لاَ تُزَيِّنُه جَوَاهِرُ أَو لآلِئُ غَالِيَة.

فَكُونِى كَمَا أَنتِ، أَرجُوكِ، لاَ تَتَغَيَّرِى!...

رَغبَتِى الوَحِيدَةُ الَّتِى اكتَشَفتُهَا الآنَ فَقَط يَا حَبِيبَتِى

أَن تُشَارِكِى مَنفِيًّا أَشيَاءَه كُلَّهَا وَحُظُوظَه.

العجُوز: أَعلَمُ أَنَّكَ لَستَ أَقَلَّ شَبَهًا بِنَا

رَغمَ أَنَّكَ وُلِدتَ لِلفَرَاغِ وَالثَّروَة،

لَكِن مَن قَضَى شَبَابَه فِى البَطَالَة

سَيُقَدِّرُ الحُرِّيَّةَ بِالأَقَل.

الأُسطُورَةُ التِى لَم تَمُت أَبَدًا

لَكِنَّهَا تَعِيشُ بَينَنَا،

تَتَحَدَّثُ عَن رَجُلٍ نَفَاه الإِمبِرَاطُور

مِنَ البِقَاعِ الشَّمَالِيَّة.

اسمُهُ ضَاعَ منِّى
وكَانَ أن فَتُرَت همَّته هُنَا، وَهَذَا مَا أذكُر
رَغمَ أنَّه كَانَ طَيِّبًا عَلَى مَرِّ السِّنِينِ وَشَابَّ الرُّوح
بِمَوهِبَةِ الغِنَاءِ الرَّائعَة
المَنُوحَة لَه مُنذ مِيلاَدِه؛
صَوتُه- إن تَسمَعه
كَانَ كَأنَّكَ تَسمَعُ خَرِيرَ جَدوَلٍ فِى جَبَل...
وَبِإرَادَةِ القَدَرِ انتَقَلَ إلَى هَذهِ الشَّوَاطِئ،
وَانتَزَعَ حُبَّ الجَمِيع
وَبِقَصَائِده فَتَنَ قُلُوبَ الرِّجَال.
كَانَ الشَّاعِرُ طِفلاً حَقِيقِيًا بِالطَّبِيعَة؛
عَاوَنَه جِيرَانُه فِى صَيدِ السَّمَك
وَاصطَادُوا مَا كَانَ يَحتَاجُ إلَيهِ مِنَ الحَيَوَانَاتِ البَرِّيَّة،
وَهَكَذَا كَانَت أعمَالُه.. الأسهَل.
وَفِى الشِّتَاء،
عِندَمَا أوثَقَ الجَلِيدُ النَّهرَ، وَعَوَت الرِّيَاحُ مُحتَدِمَة،
صَنَعُوا لِلمُغَنِّى العَجُوزِ مَلاَبِسَ مِنَ الفِرَاء،
كَقِدِّيسٍ وَسطَ رِجَالٍ عَادِيِّين.
لَكِن بِالنِّسبَةِ لِحَيَاةٍ بَخِيلَةٍ وَدَنِيئَةٍ تَمَامًا،

لَم يَستَطِع، وَا أَسفَاه، غَيرَ أَن يَتَوَافَقَ مَعَ المَرَض
وَازدَادَ ضَعفًا كُلَّ يَوم،
وَأَشَارَ إِلَى العِقَابِ الإِلَهِى
وَقَالَ إِنَّه العَدلُ أَن يَدفَعَ الآنَ ثَمَنَ خَطَايَاه
مُتَحَمِّسًا رَاحَ يُصَلِّى مِن أَجلِ التَّحَرُّرِ العَذب،
وَعَلَى طُولِ شَوَاطِئِ الدَّانُوب
تَجَوَّلَ حَزِينًا،
رَجُلاً هَرِمًا مَكسُورًا،
وَسَافِحًا دُمُوعًا مَرِيرَةً، تَذَكَّرَ أَرضَه الغَالِيَة،
تَأَمَّلَ مَصَائِرَهَا حَتَّى النِّهَايَة،
وَمُمَدَّدًا عَلَى فِرَاشِ المَوت، وَقُوَّتُه تُسرِعُ بِالانحِسَار
طَلَبَ أَن يُحمَلَ جُثمَانُه إِلَى الشَّمَال.
حَتَّى فِى المَوت
تُطَالِبُ رُوحُه بِالشَّوَاطِئِ التِى اقتُلِعَ مِنهَا..!

أَليكُو: وَهَكَذَا قَدَرُ أَبنَائِك، يَا رُومَا،
أَيَّتُهَا المَدِينَةُ اللاَّمِعَةُ العَظِيمَة!...
مَا الشُّهرَةُ العَالَمِيَّة؟
تَعَالَ، أَجِبنِى،
يَا شَاعِرَ الآلِهَةِ، يَا شَاعِرَ الحُبِّ وَالجَمَال-

أهِيَ كَلِمَةُ إِطرَاءٍ تَتَلاَشَى،
العَوِيلُ البَاهِتُ وَالبَارِدُ لِدَقَّاتِ أَجرَاسِ الكَنِيسَةِ،
أَقصِيدَةٌ تَشُقُّ طَرِيقَهَا- خَالِدَةً- عَبرَ العُصُور
أَم أَنَّهَا حِكَايَةٌ يَروِيهَا الغَجَر.

•••

يَمُرُّ صَيفَان، مُتَسَلِّلَين سَرِيعًا إِلَى الأمَام،
وَلاَ يَزَالُ الغَجَرُ يَطُوفُون السَّهل،
وَحَيثُمَا تَأخُذُهُم الطُّرُق،
يَجِدُونَ التَّرحِيبَ فِي استِقبَالِهِم وَالمُستَقَر.
وَمُزدَرِيًا قُيُودَ المَدِينَة،
أَصبَحَ أَلِيكُو حُرًّا مِثلَهُم.
لاَ يَستَثِيرُ المَاضِي لَدَيهِ أَيَّ حَنِين:
هَائِمٌ عَلَى وَجهِهِ، وَسَيَظَل.
مَعَ زَمفِيرَا وَأَبِيهَا؛
حَيَاتُهُم حَيَاتُه
وَلاَ يُمكِنُه تَذَكُّرُ حَيَاة أُخرَى؛
يُحِبُّ الأسَالِيبَ الغَجَرِيَّة،
وَحَدِيثَهُم الفَقِيرَ لَكِن العَذب،
وَالأُمسِيَاتِ المُضِيئَةَ تَحتَ النُّجُوم،

الأيَّامَ المُنْدَفِقَةَ بِسُرعَةٍ، وَأيضًا المُتَرَاخِيَةَ وَالبَهِيجَة.
حَيثُمَا يَذهَبُون، مَعَهُم يَحمِلُون
حَيَوانًا مُتَوَحِّشًا، سَاكِنَ عَرِين.
وَإذ يَرقُبُه الحَشدُ الذِى يَتَجَمَّعُ فِى حَذَر،
بِجَانِب حَانَة القَريَة،
يَدبُّ الدُّبُّ بِقُوَّةٍ رَاقِصًا، إلَى أعلَى وَأسفَل،
وَحِينَ يَتعَب، يَقضُمُ السَّلاَسِل،
وَيَزأَرُ عَالِيًا بَينَ حِينٍ وَآخَر.
يَقِفُ العَجُوزُ عَلَى مِنَصَّته
مُنحَنِيًا، ضَارِبًا عَلَى الدُّفِّ بِكَسَل.
وَحِينَ يُغَنِّى أليكُو أُغنِيَة
يَتَقَدَّمُ جُمهُورُه مُلتَفًّا حَولَه.
تَأتِى زَمفِيرَا وَأطرَافُ ثَوبِهَا تَتَأرجَح؛
وَتَأخُذُ النُّقُودَ المُقَدَّمَةَ مِن وَاحِدٍ لآخَر...
يَطبُخُونَ بَعضَ الدُّخنِ لِلعَشَاء
ثُم، إذَا مَا حَلَّ الظَّلاَم،
يَبسطُ النَّومُ اللَّذِيذُ فِى الخَيمَةِ اليَدَ العُليَا،
وَيَسُودُ السُّكُونُ عَمِيقًا حَتَّى الصَّبَاح.

يُدفِئُ الغَجَرِيُّ العَجُوزُ جَسَدَه المُتَأَلِّمَ فِى الشَّمس؛
يَنحَنِى عَلَى مَهدِ أَحَدِ الأطفَال،
تُغَنِّى ابنَتُه،
يُصغِى أَلِيكُو فِى دَهشَةٍ، وَغَضَبُه يَصحُو.

زَمفِيرَا: عَجُوزٌ وَصَارِمٌ، زَوجِى،
اطعَن زَوجَتَك، اقتُل زَوجَتَك!
لَن يُوقِفَنِى شَىءٌ، لأَنِّى
لاَ أَخَافُ سكِّينَك.
عَجُوزٌ وَحَقِيرٌ، زَوجِى،
وَأَنَا أُحِبُّ رَجُلاً غَيرَه.
سَأُحِبُّه حَتَّى المَوت،
لَكِن لَيسَ أَنتَ، لَيسَ أَنت.

أَلِيكُو: كَفَى...
لاَ تُغَنِّى أُغنِيَتَكِ مَرَّةً أُخرَى، أَرجُوك!
فَأَنَا أَقشَعِرُّ مِن رَنِينِهَا الغَرِيبِ وَالهَمَجِى.

زَمفِيرَا: حَقًّا!
هَل تَظُنُّ أَنِّى سَأُطِيعُك؟
فَهِىَ لِى أَنَا، وَلَستُ أُغَنِّى لَك.
عَجُوزٌ وَصَارِمٌ، زَوجِى،

اطعَنِّى، اقذِف بِى فِى النَّار.
وَاعلَم: أيًّا مَا تَفعَل،
لَن أُخبِرك بِاسمِهِ.
هُوَ شَابٌّ، هُوَ قَوِى،
وَأنَا تَحتَ سُلطَانِه الطَّاغِى.
رَائِعٌ كَمَا الرَّبِيع هُوَ،
وَيُحِبُّنِى بِكُلِّ مَا يَملِك.
وَاعلَم: أنِّى قَبَّلتُه،
فِى سُكُونِ اللَّيل.
وَكَم ضَحِكنَا، يَا زَوجِى،
عِندَمَا فَكَّرنَا فِى وَرطَتِك.

أَلِيكُو: كَفَى، يَا زَوجَة!
كُلُّ شَىءٍ بِخَير، دَعِينَا نَنسَاه..

زَمفِيرَا: أُغنِيَتِى-
أَتَظُنُّ أَنَّهَا لاَ تَبدُو حَقِيقِيَّة؟

أَلِيكُو: زَمفِيرَا!

زَمفِيرَا: هَا!
أَلَن تَدعَهَا إِلَى أَن تَستَفِزَّك؟
أمرٌ غَرِيب!

إنَّنِى أُغَنِّى عَنك.

تستمر فى الغناء وهى تسير:

"عَجُوزٌ وَصَارِمٌ.... إلخ"

العجُوز: أعرِفُ هَذهِ الأُغنيَة-

أُغنِيَةٌ سَارَّةٌ وَجَمِيلَة.

عِندَمَا كُنتُ شَابًا،

كَانَت تَستَثِيرُ أُذُنَ كَلِّ مَن يَسمَعُهَا،

وَأَتذَكَّرُ أَنَّهَا كَثِيرًا مَا كَانَت تُغَنَّى.

فِى أَيَّامِ الشِّتَاء،

كَانَت حَبِيبَتِى "مَاريُولاَ"- جَالِسَةً بِجَانِبِ النَّار-

(أَتذَكَّرُ كَم كَانَت جَمِيلَة!)

تُغَنِّيهَا لابنَتِنَا الصَّغِيرَةِ كَالهَدهَدَة.

وَإِذ يَتَدَفَّقُ الزَّمَن

يُصبِحُ المَاضِى أَكثَرَ إِعتَامًا

حتى لا يَبقَى لِى سِوَى مِزقَة.

لَكِنَّ هَذهِ الأُغنِيَةَ القَدِيمَة

تَظَلُّ أَبَدًا مَحفُورَةً فِى ذَاكِرَتِى.

كُلُّ شَىءٍ هَادِئ.

أُضيئَت السَّمَاءُ الشَّمَاليَّةُ بِالنُّورِ النَّاعِمِ لِلقَمَر،
وَأشعَّته المَائلَة لِلأبيَض.
مُستَيقظَةً فِى اللَّيل،
تُوقِظُ زَمفيرَا أبَاهَا:
"أنَا خَائفَة-
انظُر إلَى ألِيكُو يَا أبِى.
إنَّه يَئِنُّ بِصُورَةٍ مُفزِعَةٍ لِلغَايَة".

العجُوز: لاَ تُزعِجيه،
لأنَّ الرَّجُلَ النَّائِمَ عِندَمَا يَئِنُّ وَيَلهَثُ وَيَتَقَلَّب،
بَاكيًا، فِى فِرَاشِه،
فَذَلِكَ يَعنى- كَمَا يَقُولُ الرُّوس-
أنَّ الرُّوحَ التِى تَسكُنُه قَد اختَنَقَت وَمَاتَت.
سَتَذهَبُ بَعيدًا، بِلاَ عَودَة،
عِندَمَا يَتَنَفَّسُ النَّهَار.

زَمفِيرَا: وَأيضًا يَهمِسُ بِاسمِى، زَمفِيرَا.

العجُوز: هُوَ يَبحَثُ عَنك فِى النَّوم.
فَأنت يَا ابنَتِى عِندَه،
أغلَى عَليهِ مِنَ العَالَم كُلِّه.

زَمفِيرَا: حُبُّه الذِى حَمَلَنِى إلَى العُبُودِيَّةِ ذَاتَ يَوم

يُزعِجُنِى الآن.

هِىَ الحُرِّيَّةُ يَا أَبِى، مَا يُرِيدُهَا قَلبِى...

لَكِن اصْغِ!

مَرَّةً أُخرَى يَنطِقُ بِأَحَدِ الأسمَاء-

لَيسَ اسمِى، اسمٌ آخَر..

العجُوز: اسمُ مَن؟

زَمفِيرَا: هُوَ يَطحَنُ أَسنَانَه،

يَتَأَوَّه مِنَ الأَلَم

سَأُوقِظُه،

ذَلِكَ فَظِيع.

العجُوز: مَكَانَك!

سَرعَانَ مَا تُغَادِره الرُّوحُ اللَّيلِيَّة.

اهدَئِى، أرجُوكِ، يَا ابنَتِى.

زَمفِيرَا: أَلاَ تَسمَعُه؟

هُوَ يُنَادِينِى، وَلاَبُدَّ أَن أَكُونَ بِجَانِبِه،

وَإلاَّ أُصِيبَ بِأَذًى، يَا أَبِى.

أَلِيكُو: أَينَ كُنتِ؟

زَمفِيرَا: أَنَا؟ مَعَ أَبِى، هُنَاك.

يَبدُو أَنَّ رُوحًا سَودَاءَ قَد أَنهَكَتك

حَتَّى مَزَّقَت صَمِيمَ رُوحِكَ إِربًا.
لَقَد غَلَبَنِى الخَوف.
وَأَسنَانُكَ تَنطَحِنُ فِى عَذَاب،
نَادَيتَ بِاسمِى.

اليكُو: حَلُمتُ بِك.
سَودَاوِيَّةً كَانَت هَذِهِ الأَحلاَم..
وَحِينَ عَمِيَت بَصِيرَتِى
انتَصَبَت أَمَامَنَا- نَحنُ الاثنَين- بَعضُ الأَشبَاحِ الشِّرِّيرَة.

زمفيرا: لِمَاذَا تَثِقُ بِالأَحلاَم؟

اليكُو: أُقسِمُ بِالله، أَنَّنِى لاَ أَثِقُ بِشَىء!
وَا أَسَفَاه، هَكَذَا-
لاَ الأَحلاَمُ، لاَ الكَلِمَاتُ وَالوُعُود،
وَلاَ حَتَّى قَلبُك- يَا زَوجَتِى- لَو تَعلَمِين.

العجُوز: لِمَاذَا تَتَنَهَّدُ أَيُّهَا الشَّابُّ المَجنُون؟
هُنَا الرِّجَالُ أَحرَارٌ، والطَّبَائِعُ مَرِحَة،
وَالنِّسَاءُ فَاتِنَات،
وَالشَّمسُ الصَّفرَاءُ تُشرِقُ بِقُوَّةٍ فِى السَّمَاءِ اللاَّزَورَدِيَّة

أَليكُو: فَلتَستَسلِم لِلكَآبَةِ، وَسَوفَ تَهلَك.

هِىَ لاَ تُحِبُّنِى
مَن أتَعَلَّقُ بِحُبِّهَا.

العجُوز: فَلتَهدأ: هِىَ طِفلَة.
وَمِنَ الحَمَاقَة أن تَستَسلِمَ لِلحُزن:
أنتَ تُحِبُّ بِمَرَارَة، بِجُنُونٍ أليم
وَقَلبُ المَرأةِ يُحِبُّ بِصُورَةٍ مَرِحَة.
انظُر إلَى الأعلَى
حَيثُ تَمتَدُّ سُهُولُ السَّمَاءِ المُحَلِّقَة
وَرَاقِب القُرصَ النَّحِيلَ لِلقَمَرِ يَنزَلِقُ عَلَيهَا،
دَافِقًا عَلَى الأرضِ ضَوءَه المَكِين.
سَيَكُونُ الأمرُ كَذَلِك،
مَعَ غَيمَةٍ تَظَلُّ لِثَوَانٍ طَافِيَة
وَيَغسِلُهَا فِى شُعَاعِه المُتَأَلِّق،
ثُم يَترُكُهَا، وَمَعَ لِقَاءٍ آخَرَ، يُضِيؤُهَا،
وَيَنسَاقُ بَعِيدًا.
فَأن تُكَبِّلَ قَلبَ عَذرَاءَ بِقَولِك:
"كُونِى وَفِيَّةً لِحُبٍّ وَحِيد"،
لَهوَ تَمَامًا مِثلَمَا تَمنَعُ القَمَرَ
مِنَ الشُّرُوقِ عَلَى الامتِدَادِ المعزُولِ فِى الأعَالِى

فَلاَ تبتَئِس.

اليكُو: لَقَد أحَبَّتنِى!...

وَرَاكِعَةً عَلَىّ

أمضَت السَّاعَاتِ المَعزُولَةَ مِنَ اللَّيل،

بِسَعَادَةٍ وَفَرَحٍ وَاضِحَين

كَاشِفَةً حُبَّهَا وَحَنَانَهَا!...

وَمُفعَمَةً بِفَرَحٍ طُفُولِى،

كَم كَثِيرًا مَا كَانَت تُبَدِّدُ بِالهَذَرِ البَرِىءِ وَالعَذب

أَو بِالقُبُلاَتِ الفَرِحَة

أفكَارِى السَّودَاء

وَتَطرُدُ عَنِّى الكَآبَةَ التِى كَانَت تَغزُونِى أحيَانًا

وَالآن..

زَمفِيرَا حَبِيبَتِى، تِلكَ التِى أحَبَّتنِى هَذَا الحُب،

تَخُونُنِى!

العجُوز: تَعَال، أصغِ إلَىَّ وَاستَمِع جَيِّدًا:

سَأحكِى لَكَ حِكَايَةً عَنِّى أنَا نَفسِى.

حَدَثَ مُنذُ زَمَنٍ بَعِيد، يا أليكُو،

عِندَمَا كَانَت مُوسكُو لاَ تُمَثِّلُ تَهدِيدًا لَنَا-

(تَحمِلُ كَلِمَاتِى هَذِهِ

إيقَاعَ الزَّمَنِ وَالأحدَاثِ المَشئُومَة)
كُنَّا وَقتَهَا نَقِفُ فِي رُعبٍ مِنَ السُّلطَان؛
مُحجُوبًا فِي "اكرمَان" الشَّامِخ،
كَانَ يَحكُم "بُودجَاك"، أَحَدُ البَاشَوَات...
تَسمَعُ الآنَ عَن أَشيَاءٍ أَقَلَّ رُعبًا.
كُنتُ شَابًا مُفعَمًا بِالحَيَاة، وَأَفِيضُ بِرُوحِ المَرَح،
كَانَ شَعرِي أَسوَدَ، لاَ تَبدُو فِيه شَعرَةٌ فِضِّيَّةٌ وَاحِدَة
لَم نَكُن نَفتَقِرُ إِلَى العَذَارَى الفَاتِنَات،
وَلَكِن كَانَت هُنَاكَ وَاحِدَة-
مُجَرَّدُ أَن تَرَاهَا كَانَ نِعمَة-
أَحبَبتُهَا عَلَى البُعد...
ثُم أَتَى يَومٌ أَصبَحَت فِيهِ لِي.
سَرِيعًا كَنَجمٍ مُنطَلِق
يَتَوَهَّجُ الشَّبَابُ مُتَرَاجِعًا،
وَيَزدَادُ الحُبُّ بُرُودَة
وَيَرحَلُ بِسُرعَةٍ أَكبَر،
هُو حَاكِمٌ وَقتُ سِيَادَتِهِ قَصِير:
فَلِمُدَّةِ عَامٍ وَاحِدٍ فَحَسب
تَعَلَّقتُ بِحُبِّ "مَارِيُولاَ".

ذَاتَ مَرَّةٍ،
عِندَمَا نَصَبنَا خِيَامَنَا قُربَ "كَاجُول"
انضَمَّت إلَينَا هُنَاكَ ذَاتَ مَسَاءٍ قَبِيلَةٌ غَرِيبَةٌ مِنَ الغَجَر.
نَصَبُوا مُخَيَّمَهُم قُربَنَا
وَأَقَامُوا لَيلَتَينِ قَصِيرَتَينِ هُنَاك،
تَارِكِينَ مَوقِعَ المُخَيَّمِ خِلسَةً عِندَمَا دَارَت الثَّالِثَةُ لِلمَجِيء
بِلاَ كَلِمَةٍ أَو صَوت
مَعَهُم ذَهَبَت حَبِيبَتِي "مَارِيُولاَ"،
تَارِكَةً طِفلَتَهَا النَّائِمَة.
عِندَ استِيقَاظِ الغَجَرِ وَجَدتُهَا ذَهَبَت...
جَرَيتُ أَدُورُ بَحثًا عَنهَا وَأَصرُخُ بِاسمِهَا سُدًى
كَانَت قَد اختَفَت..
صُدِمتُ..
انتَحَبَت زَمفِيرَا، وَمَعَهَا بَكَيت.
مُنذُ ذَلِكَ الحِينِ أَمرَضَنِي وَأَضجَرَنِي التَّفكِيرُ فِي الحُب
بِمُرُورِ الزَّمَنِ احتَفَظتُ لِنَفسِي بِالكَثِير،
رَافِضًا كُلَّ العُرُوضِ بِالزَّوَاج
وَمُختَارًا الحَيَاةَ وَحِيدًا هَذِهِ السِّنِين الطَّوِيلَة.

أَلِيكُو: لِمَ لَم تُطَارِدِ الحَيَوَانَ البَرِّيَّ وَزَوجَتَك

هَذِهِ المُخَادِعَةَ العَذبَة،
وَتَطعَن، مَدفُوعًا بِحُمَّى الحُبِّ العَميَاء،
قَلبَيهمَا بِخنجَرٍ حَاقِد؟

العجُوز: أكثرُ حُرِّيَّةً مِن طَائِرٍ، هُوَ الحُب:
حَاوِل أن تَحبِسَه، وَسَوفَ يَطِيرُ مِنك.
إِنَّه يَجِيء،
ثُم وَا أَسَفَاه، يَمضِي إِلَى الأبَد
مَهمَا حَاوَلتَ- مِرَارًا- أن تَستَبقِيَه...

أَلِيكُو: مَاذَا؟
أَتنفُرُ مِنَ الانتِقَام،
لِتَتَخَلَّى عَمَّا تَملِكُ بِالعَدل؟
لاَ، أَبَدًا!...
فَلِمُجَرَّدِ خَطَإٍ أو هَفوَةٍ
سَأَرُدُّ الانتِقَامَ كَامِلاً
فَلَو عَثَرتُ عَلَى غَرِيمِي
رَاقِدًا عَلَى البَحرِ فَوقَ صَخرَةٍ نَاتِئَة
أُقسِمُ بِالآلِهَةِ أَنِّي لَن أترُكَه آنَئِذٍ
لِينَامَ هُنَاكَ فِي سَلاَم،
بَل سَأُطِيحُ بِهِ مِن فَوق الحَافَّة،

رَغمَ أنَّ الوَغدَ سيَكُونُ بِلاَ حِيلَة،
وَأهدرُ بِالضَّحكِ فِيمَا أَفعَلُ ذَلك،
مُفعَمًا بِبَهجَةِ أن أرَى رُعبَه
وَبَعدَ مُرُورِ زَمَنٍ طَويل
سَيُفعِمُنِي الطَّرَب كُلَّمَا فَكَّرتُ فِي ذَلِك.

الشَاب الغَجَرى: قُبلَةً وَاحدَةً أُخرَى...
لاَ تَكُونِى بَخِيلَةً بِالقُبُلاَت، يَا فَتَاتِى.

زَمفِيرَا: زَوجِى رَجُلٌ غَيُورٌ وَقَاسٍ.
لاَ أَستَطِيعُ أَن أَتَأَخَّر..
الشَّاب الغَجَرى: انتَظِرِى!
وَاحِدَةً أُخرَى، قُبلَةً لَذِيذَة..
مَتَى نَلتَقِى؟

زَمفِيرَا: لاَبُد أَن نَكُونَ حَذِرَيْن.
سَأَرَاكَ عِندَمَا يَأفُلُ القمَر،
وَرَاءَ الرَّبوَة.

الشَاب الغَجَرى: أَلَن تَخدَعِينِى؟
هَل سَتَأتِين؟

زَمفِيرَا: اذهَب الآنَ وَلاَ تَقلَق.

سَأكُونُ هُنَاكَ يَا حُبِّى الغَالِى، صَدِّقنِى.

يَنَامُ أَلِيكُو
وَفِى الحُلمِ تُطَارِدُه رُؤَى ضَبَابِيَّةٌ خَاطِفَة،
لَكِنَّهَا مُخِيفَة.
مَعَ صَرخَةٍ يَبدَأُ فِى الاستِيقَاظ،
وَيَتَلَمَّسُ طَرِيقَه بِقَلبٍ خَافِقٍ بَحثًا عَن زَوجَتِه..
تَصطَدِمُ يَدُه المُتَرَدِّدَةُ بِالمُلاَءَاتِ المُتَسَاقِطَة،
وَحِينَ لاَ يَجِدُ غَيرَهَا
يَتَّكِئُ مُنهَكًا..
يَنهَضُ وَيَنظُرُ حَوَالَيه...
وَيُنبِئُه السُّكُونُ السَّائِدُ المُحِيطُ بِالأَسوَأ..
وَإِذ لاَ يَكبَحُ مَخَاوِفَه المُتَصَاعِدَةَ مَرَّةً أُخرَى،
تَضرِبُه السُّخُونَةُ مَرَّةً، وَالبُرُودَةُ أُخرَى، تِبَاعًا،
وَيَتَعَثَّرُ فِى الخَارِجِ بِصُورَةٍ عَميَاء..
كُلُّ شَىءٍ ظَلاَم...
يَنَامُ حَوَالَيهِ السَّهل...
وَأَنهَارٌ مِنَ الضَّبَابِ تَطوِى قَمَرًا مَاكِرًا...
حَولَ مَكَانِ المُخَيَّمِ النَّائِم

يَطُوفُ خِلسَةً وَحِيدًا بِسيمَاءَ شَاحِبَةٍ مُتَجَهِّمَة...
بَاهِتٌ لَمعَانُ النُّجُوم،
ضَوؤُهَا المُرتَعِشُ، المُنسَلُّ خِلاَلَ شَوَاطِئِ الغُيُوم،
يَكشِفُ المَسَالِك..
وَعَبرَ المَرجِ يَسلُكُهَا نَافِدَ الصَّبر.
تَبدُو مَقبَرَةٌ بِجَانِبِ الطَّرِيق،
بَيضَاءَ فِى الظُّلمَة
تَجتَذِبُ بَصَرَه الآن.
مُفعَمًا بِتَوَقُّعٍ مَرِيض،
يُجَرجِرُ خُطوَاتِه البَطِيئَةَ إِلَى هُنَاك،
فِى نَوعٍ مِنَ النَّشوَةِ أَو الدُّوَار...
شَفَتَاه تَرتَعِشَان، وَأَيضًا رُكبَتَاه...
فِى مُوَاجَهَتِه هُنَاكَ يَلُوحُ ظِلاَّن، شَبَحَان..
مُتَّجِهًا إِلَيهِمَا، يَسمَعُهُمَا يَهمِسَانِ فِى الظَّلاَم،
فَوقَ الصَّخرَةِ المُلَطَّخَة..

الصَّوتُ الأَوَّل: أَبَدًا، بِصِدق،
لاَبُدَّ مِنَ الرَّحِيل..

الصوت الثانى: أَهَكَذَا بِفُتُورٍ تَترُكِينَنِى وَتَذهَبِين؟

انتَظِرِى حَتَّى الصَّبَاح.

الصَّوتُ الأوَّل: لاَ أستَطِيع.

مُزعِجٌ أن تَتَوَسَّل.

الصَّوتُ الثَّانى: حُبُّك بَخِيل.

الصَّوتُ الأوَّل: سَتَكُونُ أدَاةَ دَمَارِى...

الصَّوتُ الثَّانى: لاَ تَذهَبِى، أرجُوكِ.

الصَّوتُ الأوَّل: وَمَاذَا لَو استَيقَظَ زَوجِى؟

أَلِيكُو: ابقَى!

لَقَد استَيقَظَ وَيُحَيِّيك.

فَلتَبقَى هُنَا، أرجُوك،

فَهَذِه المَقبَرَةُ تُنَاسِبُك.

زَمفِيرَا: اهرُب، يَا حَبِيبِى!

أَلِيكُو: لِمَاذَا تَتَعَجَّلُ الرَّحِيل؟

لاَ تَكُن مُتَسَرِّعًا هَكَذَا، أيُّهَا المُحتَال.

فَلتَظَل مُمَدَّدًا!

يطعنُه بِسكِّين

زَمفِيرَا: أليكُو!

الغَجَرى: إنَّنِى أمُوت...

زَمفِيرَا: لَقَد قَتَلتَه!...

انظُرا دَمُه عَلَى يَدَيكَ...
لَقد أَردتَ أن تَهلَكَ بِسَبَبِه،
أعرِفُ ذَلِك!...

الِيكُو: مَا حَدَثَ قَد حَدَث.
تَستَطِيعِينَ أن تَستَمتِعِى بِحُبِّه الآن.

زَمفِيرَا: أنتَ غُولٌ، أَيُّهَا الوَغدُ مُتَحَجِّرُ القَلْب!
أَنَا التِى أَحبَبتُكَ ذَاتَ يَومٍ، أكرَهُكَ وَأَحتَقِرُك،
وَأَلعَنُ الشَّيطَانَ الذِى أَنجَبَك!...

أَلِيكُو: مُوتِى، إِذًا!
يطعنُها

زَمفِيرَا: بِحُبِّى لَه أَمُوت.

أَضَاءَ نُورُ الفَجرِ الشَّرقَ سَاطِعًا..
مُمسكًا مَا يَزَالُ بِسِكِّينِه، فَوقَ حَجَرِ المَقبَرَةِ البَارِدِ؛
وَالسُّكُونُ مَنشُورٌ عَلَى السَّهلِ أَمَامَه،
جَلَسَ أَلِيكُو، مُظلِمَ الوَجهِ، وَحِيدًا وَسَاكِنًا،
ثِيَابُه دَامِيَة،
وَعندَ قَدَمَيهِ تَستَلقِى حَبِيبَتُه زَمفِيرَا مَيِّتَة
تَمَدَّدَ جَسَدُهَا بِجِوَارِ جَسَدِ حَبِيبِهَا...

حَوَالَيهِم مَاجَ الفَجَرُ فَزِعِينَ مَرعُوبِين.
وَاحِدًا وَرَاءَ الآخَر، مَعَ نِسَائِهِم،
مُرتَجِفِينَ أسًى،
انحَنَوا فَوقَ القَتِيلَين، بَاكِين،
وَقَبَّلُوا بِرِفقٍ العُيُونَ التى لاَ تَرَى.
رَاقَبَ وَالِدُ زَمفِيرَا- مَشلُولاً مِنَ الحُزن-
الاثنَين يُحمَلاَن
إلَى حَيثُ يَنتَظِرُهمَا القَبرُ المَحفُورُ حَدِيثًا
وَحَيثُ، مَقتُولَين بِيَدٍ وَاحِدَة،
وُضِعَا وَدُفِنَا...
رَاقَبَ أليكُو عَن بُعد،
وَحِينَ أخفَت حِفنَةُ التُّرَابِ الأخِيرَةُ الجَسَدَين،
هَوَى لأسفَلَ مِن فَوقِ الصَّخرَة، مُضطَرِبَ الوَعى،
وَاستَلقَى هُنَاكَ فَاقِدَ الحِسِّ وَالتَّفكِير..

حِينَئِذٍ اقتَرَبَ العَجُوزُ وَقَال:
"اذهَب أيُّهَا المُختَالُ، اترُكنَا!
لَقَد سِرنَا بِقَوَانِينَ مُختَلِفَة
وَلاَ نُرِيدُ بَينَنَا قَاتِلاً...

اذهَب حَيثُمَا تُرِيد!
فَأَنتَ تُؤذِينَا بِأَفعَالِكَ السَّودَاء وَحَمَاقَتِك
نَحنُ مَن لاَ نُحِبُّ أَن نَجرَحَ أَو نَقتُل.
حُبُّكَ لِلحُرِّيَّةِ- كَم تَتَبَاهَى بِه!
لَكِنَّكَ تُرِيدُهَا لِنَفسِكَ وَحدَك،
هَذِه الحُرِّيَّةُ، هِيَ وَأَحَدُ الغُرَبَاء
تَسكُنُ هُنَا بَينَنَا.
نَحنُ عَطُوفُون وَمُتَوَاضِعُون؛
أَنتَ فَظ،
وَحَيثُ تَسِيرُ مُتَغَطرِسًا، نَتَعَثَّرُ نَحن-
وَلِهَذَا فَلتَرحَل بِسَلاَمٍ وَوَدَاعًا لَك".

قَالَ ذَلِك،
وَمَعَ ضَجِيجٍ وَقَرقَعَةِ العَجَلاَت
كَانَ المُخَيَّمُ الغَجَرِيُّ عَلَى الطَّرِيق،
مُخَلِّفًا مَنظَرَ الرُّعبِ اللَّيلِيِّ وَالكَارِثَة.
قَبلَ مُرُورِ وَقتٍ طَوِيل،
كَانَت القَافِلَةُ قَد غَابَت عَنِ النَّظَر،
مُتَفَادِيَةً الوَادِي المَشئُوم..

وَلاَ تَزَالُ إحدَى العَرَبَاتِ وَاقِفَةً مَهجُورَةً فِى الوَادِى
تَتَدَلَّى منهَا أبسِطَةٌ بَهتَت ألوَانُهَا
فِيمَا كَانَت زَاهِيَةً ذَاتَ يَوم.
وَفِى فَجرٍ مُنعَزِلٍ ضَبَابِىٍّ، مَعَ اقتِرَابِ الشِّتَاء،
سَيُغَادِرُ سِربُ الكَركِىِّ الأرَاضِى المُوحِشَة،
وَبِصَخَبٍ حَادٍّ وَصَيحَةٍ خَارِقَة
يَطِيرُ مَلهُوفًا إلَى الجَنُوبِ، جَرِيحَ القَلبِ، فَاقِدَ الاتِّجَاه
خَافِضًا الجَنَاحَ فِى ارتِعَاش،
مُستَسلِمًا لِلقَدَرِ القَاسِى...
أتَى الغَسَقُ ثُم الظَّلاَم؛
انتَصَبَت العَرَبَةُ، وَقَد لَفَّهَا المَسَاء،
وَحِيدَةً خَاوِيَة؛
مَا ظَلَّ سَاهِرًا بِجَانِبِهَا أحَد،
وَبِالقُربِ مِنهَا أشعَلَ النَّار،
وَلاَ تَحتَ سَقفِهَا العُلوِىِّ نَام.

خاتمة

وهكذا بَعِيدًا عَنِ المَاضِى،
مُحتَقِرًا مُرُورَ الزَّمَن،
يستَدعِى لِى الصَّولَجَانُ السِّحرِىُّ لِلشِّعر،
وَيَنفُخُ الحَيَاةَ فِى أَيَّامِ الفَرَحِ الحَاضِرَة
وَأيَّامِ الحِدَادِ الرَّاهِنَة.

فِى المَنطِقَةِ التِى صَخبَت فِيهَا المَعَارِك
ذَاتَ مَرَّةٍ بِلاَ انتِهَاء
وَإلَى حُدُودِ سُلطَانِهَا
شُوهِدَ الرُّوسُ، فِى صِرَاعِهِم مَعَ الأترَاك،
حَتَّى إسطَنبُول، مُنتَصِرِين،
حَيثُ لاَ يَزَالُ نِسرُ أَمجَادِنَا المَاضِيَة
القَدِيمُ ذُو الرَّأسَين
يَرتَدِى العَبَاءَةَ المهِيبَة،

فِى السُّهُولِ، التِى كَانَت فِيمَا مَضَى
مَقَرَّ الجَمَاعَاتِ الزَّائِلَةِ وَمُعَسكَرَاتِ الحُرُوبِ القَدِيمَة،
قَابَلتُ الغَجَرَ بِأصوَاتِهِم المَرِحَة،
يَطُوفُون، صَابِرِينَ، أَسفَلَ الطُّرُقِ التُّرَابِيَّة.
عَشِقُوا الحُرِّيَّةَ وَالسَّلاَم،
وَمُتَجَوِّلاً مَعَهُم فِى السُّهُول،
أَحبَبتُ مُشَارَكَتَهم فِى طَعَامِهِم البَسِيط،
وَحَيَاتِهِم البَسِيطَة.
وَأَمَامَ نِيرَانِ مُخَيَّمِهِم، فِى الغَسَق،
نَعِستُ، وَوَجَدتُ هَذَا النُّعَاسَ عَذبًا.
امتَلأَ قَلبِى بِأَغَانِيهِم المَرِحَة،
وَكَثِيرًا مَا رَدَّدتُ بِرِقَّةٍ اسمَ "مَارِيُولاَ".

وَبَعدُ، أَيَا أَبنَاءَ الطَّبِيعَة.
يَا مَن تَرَبَّيتُم وَنَشَأتُم فِى فَقر
أَنتُم أَيضًا مِثلَنَا

مُعَذَّبونَ بِالأحلاَمِ وَالرُّؤَى المُفزِعَة،

لاَ تَعرِفُونَ إلاَّ قَليلاً مِنَ الهَنَاءَةِ الحَقِيقيَّة.

تُغيِّرُونَ فِى هَذهِ الخيَامِ الفَقيرَةِ المُتَبَدِّلَة

وَلاَ تَستَطِيعُون الفَرَارَ مِنَ الحَيَاةِ القَلِقَة.

لاَ دِفَاعَ أمَامَ الهَوَى القَدَرِى

وَلاَ مَهرَبَ مِنَ المَصِير.

١٨٢٦

مسرح شِعرى

مُوزَار وسَاليِيرى

المشهد الأوَّل
حُجـرَة

ساليِيرى : يَقُولُون: لاَ عَدَالةَ هُنَا عَلَى الأرض.

لَكِن لاَ شَىءَ- فِى الآخِرَة.

إنَّهَا حَقِيقَةٌ أوَّلِيَّةٌ لِعَقلِى كَالسُّلَّمِ المُوسِيقِى.

لَقَد وُلِدْتُ بِحُبٍّ عَظِيمٍ لِلمُوسِيقَى،

فَعِندَمَا كُنتُ طِفلاً وَسَمِعْتُ صَوتَ الأرغُن

يَتَرَدَّدُ فِى جَنَبَاتِ الكَنِيسَةِ القَدِيمَة

كُنتُ أُنصِتُ، مُستَغرِقًا فِى الإنصَات

وَأبكِى، دُونَ أن أدرِى،

دُمُوعًا مِنَ الفَرَحِ الخَالِص.

وَمُبَكِّرًا، تَخَلَّيتُ عَن كُلِّ المَبَاهِجِ الزَّائِلَة
جَعَلتُ نَفسِي غَرِيبًا عَن كُلِّ العُلُوم عدَا الموسِيقَى
أَدَرتُ ظَهرِي لَهُم بِكِبرِيَاءٍ صَارِم،
لأمنَحَ نَفسِي كُلَّهَا لِلمُوسِيقَى.
شَاقَّةٌ هِيَ الخُطوَةُ الأُولَى
وَمُوحِشَةٌ بِدَايَةُ الطَّرِيق.
تَحَمَّلتُ العَوَاصِفَ الأُولَى.
وَكَمُنطَلَقٍ نَحوَ الفَن
اتَّجَهتُ إِلَى الكَمَالِ فِي حِرفَتِي.
أصبَحتُ مُمتَلِكًا لأدَوَاتِهَا:
عَلَّمتُ أصَابِعِي الطَّلاَقَةَ المُدَرَّبَة، الجَامِدَة،
وَأُذنَيَّ التَّمييزَ الصَّارِم.
تَفَحَّصتُ المُوسِيقَى كَجُثَّة.
بَرهَنتُ عَلَى تَوَافُقَاتِهَا كَمَا الرِّيَاضِيَّات العُليَا.
وَحِينئذ، بَعدَ أن أصبَحتُ قَدِيرًا فِي النَّظَرِيَّة،
أبَحتُ لِنَفسِي بَهجَةَ التَّألِيف.
بَدَأتُ العَمَلَ، لَكِن فِي سِرِّيَّة،
فِي خُلوَة،
دُونَ أَن تَصِلَ الجُرأةُ بِي إِلَى التَّفكِيرِ فِي الشُّهرَة.

كُنتُ- فِى بَعضِ الأوقَاتِ- أجلِسُ وَحيدًا،
يَومَين، ثَلاَثَةَ أيَّامٍ، بِلاَ تَفكِيرٍ فِى الطَّعَامِ أو النَّوم،
غَرِيقًا فِى الدُّمُوعِ، فِى نَشوَةِ الإلهَام،
بَعدَهَا، كُنتُ أُشعِلُ النَّارَ فِى إنتَاجِى،
وَأَرقُبُ فِى لاَمُبالاَة
كُلَّ أفكَارِى، وَالأصوَاتِ المَولُودَةَ مِن عَنَائِى
وَهِىَ تَتوَهَّجُ وَتَتَبَدَّدُ فِى سَحَابَةٍ مِن دُخَان.
فَمَاذَا عَن ذَلِكَ؟ حَقًّا-
فَعِندَمَا ظَهَرَ "جلُوك" العَظِيم
لِيَقُودَنَا إلَى أسرَارٍ جَدِيدَة
(أَسرَارٌ آسِرَةٌ، أسرَارٌ بِلاَ قَرَار)
أَلَم يُدرِكنِى الاستِخفَافُ بِكُلِّ مَا تَعَلَّمت،
كُلِّ مَا أَحبَبتُ، وَكُلِّ مَا كُنتُ أُؤمِنُ بِهِ؟
أَلَم أتبَعهُ بِخُطًى مَلهُوفَةٍ، بِلاَ شَكوَى
كَمُسَافِرٍ ضَال
ألتَقَى- صُدفَةً- بِمَن يَعرِفُ الطَّرِيق؟
وَحلَّقتُ خِلاَلَ لاَ نِهَايَةِ الفَن،
بِالكَدِّ وَالجُهدِ المُتَوَاصِل،
وَأَنَا أبلُغُ أُفُقًا أَعلَى.

أطَلَّت الشُّهرَةُ عَلَى طَرِيقِى وَابتَسَمَت،
بَدَأت ألحَانِى تَجِدُ صَدًى
تَلقَى استِجَابَةً فِى قُلُوبِ النَّاس.
وَكُنتُ سَعِيدًا:
عَرَفتُ المُتعَةَ الحَقِيقِيَّةَ فِى العَمَل،
فِى النَّجَاحِ وَالشُّهرَة،
مُبتَهِجًا أيضًا أن أرَى أعمَالَ أصدِقَائِى
مُكلَّلَةً بِالنَّجَاح،
رِفَاقِى فِى خِدمَةِ الفَنِّ الأعلَى.
لاَ، أبَدًا مَا عَرَفتُ لَدغَةَ الحَسَد.
لاَ، أبَدًا!
وَلاَ عِندَمَا فَتَنَ "بُوتشِينِى" سَمعَ وَقَلبَ بَارِيس الهَمَجِيَّة،
وَلاَ حَتَّى عِندَمَا سَمِعتُ لِلمَرَّةِ الأُولَى
إِيقَاعَاتِ "إيفِيجِينيَا" لأُستَاذِى العَظِيم.
فَمَن الَّذِى يَجرُؤ عَلَى الزَّعم
أنَّ سَالِييرِى المُتَكَبِّر
كَانَ عُرضَةً لأكثَرِ الرَّذَائِلِ احتِقَارًا،
الحَسَدِ العَقِيم، الالتِوَاء، الحَمَاقَة،
الانسِحَاقِ، كَثُعبَانٍ يَخنقُه التُّرَابُ فِى الطَّرِيقِ العَام؟

هَا- لاَ أحَد!

لَكِن اليَوم- أَنَا نَفسِى أَقُولُها-

هَا أَنَا مُفعَمٌ بِالحَسَد.

حَسَدٌ عَمِيقٌ، أَلِيمٌ، يَستَنزِفُنِى.

آه، أَيَّتُهَا العَدَالَةُ الإلهِيَّة!

فَلَم تَأتِ المَوهبَةُ المُقَدَّسَة،

العَبقَرِيَّةُ الأَبَدِيَّة،

لِتُبارِكَ العَاشِقَ الغَيُور،

الرَّاهِبَ الوَرِع،

كَمُكَافَأةٍ تَلِيقُ بِالعَنَاءِ وَالسَّهَرِ المُخلِص،

وَلَكِن الهَالاَتِ الاجتِمَاعِيَّة

حَولَ رَأسِ العَابِثِ، الطَّائِشِ اللاَّمُبَالِى-

آهِ مُوزَار، مُوزَار!

(يدخل موزار)

مُوزار : آهَا! لَقَد رَأَيتَنِى!

كُنتُ أَنوِى أَن أَصنَعَ مُفَاجَأةً لَك،

شَيئًا مَا يَبعَثُ عَلَى الضَّحِك.

سَالِيِيرِى : أَأَنتَ هُنَا!

مَتَى أَتَيت؟

موزار : الآنَ فِى التَّو.

فَلَدَىَّ مَا أُرِيدُ عَرضَه عَلَيك،

وَكُنتُ فِى طَرِيقِى إِلَى هُنَا،

عِندَمَا اقتَحَمَ أُذنِى، وَأَنَا أَمُرُّ بِالحَانَة،

صَرِيرُ عَازِفِ كَمَان...

آه لاَ، أَيُّهَا الصَّدِيقُ، سَالِييرِى!

فَأَنتَ لَم تَسمَع أَبَدًا فِى حَيَاتك

أىَّ شَىءٍ كُومِيدِى عَلَى هَذَا النَّحو...

فَعَازِفُ الحَانَةِ كَانَ يُجَاهِدُ لِيَعزِفَ "فوَا شِى سَابِيت".

رَائِع!

وكَانَ عَلَىَّ بِبَسَاطَةٍ أَن آتِى بِالرَّجُل

لِيُقَدِّمَ لَكَ عَيِّنَةً مِن فَنِّه.

أدخُل!

(يدخل رجلٌ عجوزٌ أعمَى ومعه كمان)

وَالآنَ، فَلتَكُن كَرِيمًا،

وَلتُسمِعنَا شَيئًا مِن مُوزَار.

يعزف العجوز مقطوعة من "دُون جُوان".

مُوزار يغلبه الضحك

سَالِييرِى : وَيُمكنُك الضَّحِكُ مِن ذَلِك؟

مُوزَار : يَا عَزِيزِى سَالِيِيرِى!
كَيفَ يُمكنُكَ أن تَتَمَالَكَ نَفسَكَ مِنَ الضَّحِك؟
سَالِيِيرِى : بسُهُولَة.
فَلاَ يَدفَعُنِى إلَى الضَّحِك
أن يُحَاوِلَ رَسَّامٌ بَائِس
تَقلِيدَ "المَادُونَّا" لِـ"رفَائِيل".
لاَ يَدفَعُنِى إلَى الضَّحِك
أن يُهِينَ شُوَيعِرٌ تَافِه
"دَانتِى" بِالتَّقلِيدِ الرَّدِىء.
اذهَب، أيُّهَا العَجُوز.
مُوزَار : لَحظَةً وَاحِدَة، تَعَال،
خُذ هَذَا واشرَب فِى صِحَّتِى،
أيُّهَا الرَّفِيقُ الطَّيِّب.
(يخرج العجوز)
أنتَ، يَا سَالِيِيرِى، مُنحَرِفُ المِزَاجِ اليَوم.
سَآتِى لأرَاكَ فِى وَقتٍ آخَر.
سَالِيِيرِى : مَا الَّذِى كُنتَ تُرِيدُ أن تَعرِضَه عَلَىَّ؟
مُوزَار : آه- لَيسَ مُهِمًّا، بَل هُو أمرٌ تَافِه.
فَفِى اللَّيلَةِ المَاضِيةِ لَم أستَطِعِ النَّوم

- إنَّه أَرَقى القَديـم
وَرَاوَدَتنِى فِكرَتَان أو ثَـلاَث.
سَجَّلتُها اليَوم.
وَكُنتُ أَوَد أَن أعرِفَ رَأيَكَ فِيهَا،
لَكِنَّكَ لَستَ مُعتَدِلَ المِزَاج.

سَالِييرِى : آهِ مُوزَار، مُـوزَار!
أَلَستُ مُعتَدِلَ المِزاجِ لأَسمَعَكَ وَأَنتَ تَعزِفُ؟!
هَيَّا اجلِس، فَأَنَا مُنصِت.

مُوزَار : (يجلس إلى البيـانو)
تَخَيَّـل... أيًا مَن تُرِيد..
أَنَا- إِن أَرَدتَ- لَكِن أَصغَرَ قَلِيـلاً،
فِى حَالَةِ حُب- لَكِن لَيسَ عَمِيقًـا،
مُجَرَّدَ هَـوًى،
وَحَسنَاءُ، أَو صَدِيقٌ- لِتَفتَرِض- بِجَانِبِى-، مُبتَهِجَيْن..
ثُم، فَجأَةً: ظَـلاَم،
رُؤيَا الهَلاَك، أَو شَىءٌ مِن هَذَا القَبِيل..
حَسَنًا، الأَفضَلُ أَن تَسمَعَ...
(يعـزف)

سَالِييرِى : أَتَيتَ لِى بِذَلِك

وَوَاتَتكَ القُدرَةُ عَلَى التَّوَقُّفِ خَارِجَ حَانَةٍ فِى الطَّرِيق
لِتَستَمِعَ إِلَى صَرِيرِ ذَلِكَ العَازِفِ الأعمَى العَجُوز!..
يَا إِلَهِى الطَّيِّب!
أنتَ، يَا مُوزَار، لاَ تَستَحِقُّ نَفسَك.

مُوزَار : أعجَبَتكَ إذًا؟

سَالِيِيرِى : لَكِن يَا لَه مِن عُمق!
يَا لَهَا مِن جُرأَةٍ، وَمِن تَوَافُقٍ فِى الشَّكل!
أنتَ، يَا مُوزَار، إِلَهٌ دُونَ أن تَدرِى،
وَلَكِنِّى أدرِى.

مُوزَار : يَاه! هَل تَظُن ذَلك؟ رُبَّمَا...
لَكِنَّ أُلُوهِيَّتِى تَهفُو الآنَ بِشِدَّةٍ إِلَى الغدَاء.

سَالِيِيرِى : لَدَىَّ فِكرَة: فَلنَتَغَدَّ مَعًا.
إن "الأسدَ الذَّهَبِىَّ" حَانَةٌ لَطِيفَة.

مُوزَار : بِكُلِّ سُرُور، فَذَلِكَ يُسعِدُنى.
لَكِن يَنبَغِى أوَّلاً أن أذهَبَ إِلَى البَيت
وَأُخبِرَ زَوجَتِى ألاَّ تَنتَظِرَنى اليَومَ عَلَى الغَدَاء.
(يخـرج)

سَالِيِيرِى : سَوفَ أنتَظِرُك، وَلَن آكِل.
لاَ! لَم أعُد أستَطِيعُ مُقَاوَمَةَ القَدَرِ الذِى يَحكُمُنِى،

فَمُهمَّتِى أَن أُوقِفَه.
فَلَو لَم أَفعَل،
فإِنَّنَا كُلنَا، كَهَنَةَ وَمُرِيدِى الفَن، سَوفَ نَفْنَى.
لَستُ وَحدِى بِمَا أَملِكُ مِن قَدرٍ ضَئِيلٍ مِنَ الشُّهرَة..
فَمَا الفَائِدَةُ إِن كَانَ لِمُوزَار أَن يَحيَا
وَأَن يَرقَى قِمَمًا جَدِيدَة،
وَذُرَى لَم يُدرِكهَا الحُلم؟
أَبِذَلِكَ سَيَرقَى بِالمُوسِيقَى؟
لاَ، لَن يَحدُث.
فَسَتَنكَفِئُ مِن جَدِيدٍ مَعَ انطِفَائِه.
ذَلك أَنَّه لَن يَترُكَ وَرَاءَه وَرِيثًا
يَقُودُنَا عَلَى الطَّرِيق.
فَأَيَّةُ فَائِدَةٍ مِنه؟
لَقَد تَنَزَّل عَلَينَا كَمَلاَك مُتَأَلِّق
بِبَاقَةٍ مِنَ الأَلحَانِ السَّمَاوِيَّة
لِمُجَرَّدِ أَن يُوقِظَ أَشوَاقًا بِلاَ أَجنِحَةٍ فِى قُلُوبِنا
نَحنُ أَبنَاءَ الطِّينِ البَائِسِين-
إِذًا، فَلتُحَلِّق بَعِيدًا!
حَلِّق، حَلِّق إِذًا يَا مُوزَار!

حلَّق، بِأسرَعَ مَا يُمكِن.

هَا هُو السُّم، الهَدِيَّةُ الأخِيرَةُ لِحَبِيبَتِى "إيزُورَا".
احتَفَظتُ بِهِ طُوَالَ ثَمَانِيَةَ عَشرَ عَامًا-
كَم ابتَلَتنِى الحَيَاةُ طُوَالَ هَذِهِ الأعوَام
بِجرَاحٍ لاَ تُطَاق،
وَكَم جَلَستُ إلَى مَائِدَةِ الطَّعَام
مَعَ غَرِيمٍ لاَ يَنتَابُه الارتِيَابُ أبَدًا،
لَكِنِّى مَا أَصغَيتُ أبَدًا لِلهَمسِ اللَّحُوح
لِلإغرَاءِ القَاتِل،
رَغمَ أنِّى لَستُ جَبَانًا،
رَغمَ حَسَاسِيَتِى العَمِيقَةِ لِلظُّلم،
رَغمَ أنِّى أمتَلِكُ حَيَاةً، وَإن تَكُن رَخِيصَة.
تَوَانَيتُ حَتَّى الآن.
وَعِندَمَا جَاءَت أُمنِيَةُ المَوتِ لِتُعذِّبَنِى،
حَقًّا، مَا المَوت؟
كُنتُ أظُن: أنَّ الحَيَاةَ رُبَّمَا تُمطِرُنِى
ذَاتَ يَومٍ بِمَا لَم أتَوَقَّع مِن هِبَات،
أنَّ النَّشوَةَ الغَامِرَةَ رُبَّمَا تَأتِى مِن جَدِيد،

النَّشـوَة، وَلَيلَةَ الإلهَـام،
رُبَّمَا أَتَى "هَايدنِ" جَديـد
لِيُؤَلِّفَ أحَدَ الأعمَالِ العَظيمَة فَتَمنَحَنى السَّعَادَة..
أو رُبَّمَا قَابَلتُ- فِى وَلِيمَةٍ لِبَعضِ الضُّيُوفِ المَرذُولِين-
غَرِيمًا قَاتِـلاً،
رُبَّمَا أطَاحَ بِى ظُلمٌ مُميت
عَن الأعَالِى المُهِينَـة-
وَقتَهَا، لأصبَحَت هَدِيَّةُ "إيزُورَا" إذًا.
أكثَرَ فَائـدَة.
وَكُنتُ مُحِقًّا!
فَهَا أنَا أخِيرًا قَد عَثَرتُ عَلَى غَرِيمِـى،
وَهَا هُو "هَايدنِ" الجَديـد
قَد أيقَظَنِى عَلَى النَّشوَةِ السَّمَاوِيَّة!
وَالآنَ- هُوَ الوَقت!
آه، يَا هَديَّةَ الحُبِّ المُقَدَّسَـة
اليَومَ سَتَعبُرِينَ إِلَى كَأسِ الصَّدَاقَـة.

المشهد الثَّانى

غرفة خاصة فى الحانة، بيانو
مُوزَار وسَاليِيرِى إلى منضدة

سَاليِيرِى : أنتَ اليَومَ مُتَجَهِّمٌ مَلُول، مَاذَا بِك؟

مُوزَار : أنَـا؟
لاَ !

سَاليِيرِى : أحَدَثَ شَىءٌ مُزعِج؟
فَالغَدَاءُ جَيِّـد،
وَالخَمرُ مِن أفضَلِ الأنوَاع،
لَكِنَّكَ تَجلِسُ صَامِتًا، مُتَجَهِّمًـا...

مُوزَار : أعتَـرِفُ لَك
بِأنَّ القُدَّاسَ الجنَائِزِىَّ الَّذِى أُؤَلِّفُـه يُقلِقُنِـى.

سَاليِيرِى : آه !
تُؤَلِّفُ قُدَّاسًا جنَائِزِيًّا!
مُنذُ مَتَـى؟

مُوزار : مُنذُ مُدَّةٍ طَوِيلَة- ثَلاَثَة أسَابِيع.

لَكِنَّه- إِلَى حَدٍّ مَا- غَرِيب...

أَلَم أُخبِرك؟

ساليِيرِى : نعم لم تخبرنى

مُوزار : إِذًا، فَاسمَع.

مُنذُ ثَلاَثَةِ أسَابِيعَ عُدتُ مُتَأخِّرًا إِلَى البَيت

فَأَخبَرُونِى أَنَّ زَائِرًا طَلَبَ أَن يَرَانِى.

لَم يَذكُر مِهنَتَه.

وَظَلَلتُ أتَسَاءَلُ طُولَ اللَّيل:

تُرَى مَن يَكُون؟

وَمَاذَا يُرِيدُ مِنِّى؟

وَفِى اليَومِ التَّالِى سَأَلَ عَنِّى مِن جَدِيد.

وَمَرَّةً أُخرَى كُنتُ خَارِجَ البَيت.

وَفِى اليَومِ الثَّالِثِ كُنتُ أَلعَبُ مَعَ ابنِى الصَّغِير

عَلَى أرضِ الحُجرَة.

نَادَى عَلَىَّ مِن الخَارِجِ شَخصٌ مَا.

ذَهَبت.

كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَرتَدِى مَلاَبِسَ الحِدَادِ السَّودَاء،

بَادَرَنِى بِانحِنَاءَةٍ مُهَذَّبَة،

وَطَلَبَ مِنِّى أن أكتُبَ قُدَّاسًا جنَائِزِيًا.
وَمَضَى.
جَلَستُ لِلعَمَلِ عَلَى الفَور...
لَكِن مُنذُ ذَلكَ الحِين
لَم يَأتِ الرَّجُلُ ذُو المَلاَبِسِ السَّودَاء
لِيُطَالِبَ بِالعَمَل...
وَأنَا- عَلَى نَحوٍ مَا- سَعِيد.
فَسَيُحزِنُنِى أن أرَى عَمَلِى يَضِيع.
عَلَى أيَّةِ حَالٍ، فَالقُدَّاسُ جَاهِزٌ تَمَامًا.
وَلَكِنِّى...

سَالِييرِى : وَلَكِنَّك...؟

مُوزَار : أُحِسُّ الآنَ أنَّ مِنَ العَارِ أن أسمَح...

سَالِييرِى : مَاذَا؟

مُوزَار : لَيلَ نَهَار مَا يَزَالُ الرَّجُلُ بِمَلاَبِسِه السَّودَاءِ
يُطَارِدُنِى.
وَكَشَبَحٍ يَركُضُ خَلفِى
أينَمَا وَجَّهتُ خُطوَاتِى.
حَتَّى الآنَ، فَهوَ يَبدُو لِى
رَجُلاً ثَالِثًا يَجلِسُ مَعَنَا إلَى المِنضَدَة.

سالييرى : أُوه، هَيَّـا!

إِنَّهَا خَيَالاَتٌ صِبيَانِيَّةٌ، لاَ أَكثَـر!

فَمِثلُ هَذِهِ المَخَاوِفِ بِلاَ أَسَـاس.

فَلتَنفُضهَا عَنك!

كَانَ صَدِيقِى "بُومَارشِيه" يَقُولُ لِى:

"أَخِى سَالييـرِى،

عِندَمَا تَنتَابُكَ الأَفكَارُ السَّـودَاء،

فَإِنَّ العِلاَجَ الذَّهَبِى

هُو أَن تَفتَحَ زُجَاجَةَ شَـمبَانيَا

أَو تَقرأَ "زَوَاج فِيجَارُو" ".

مُوزَار : بِالطَّبـع!

كَانَ "بُومَارشِيه" صَدِيقًا لَك،

فَلَه أَلَّفتَ "تَارَار"،

يَا لَها مِن أُوبرَا مَرِحَـة.

فِيهَا أَحَدُ الأَلحَان

أَتَرَنَّمُ بِهِ عَادَةً عِندَمَا أَشعُرُ بِالسَّعَادَة...

لاَ لاَ لاَ لاَ...

آه، أَحَقِيقِـىٌّ، يَا سَالييرِى،

أَنَّ "بُومَارشِيه" قَد دَسَّ السُّـم

وَطَلَبَ مِنِّى أن أكتُبَ قُدَّاسًا جنَائِزِيًّا.
وَمَضَى.
جَلَستُ لِلعَمَلِ عَلَى الفَور...
لَكِن مُنذُ ذَلِكَ الحِين
لَم يَأتِ الرَّجُلُ ذُو المَلاَبِسِ السَّودَاء
لِيُطَالِبَ بِالعَمَل...
وَأنَا- عَلَى نَحوٍ مَا- سَعِيد.
فَسَيُحزِنُنِى أن أرَى عَمَلِى يَضِيع.
عَلَى أيَّةِ حَالٍ، فَالقُدَّاسُ جَاهِزٌ تَمَامًا.
وَلَكِنِّى...

سَاليِيرِى : وَلَكِنَّك...؟

مُوزَار : أُحِسُّ الآنَ أنَّ مِنَ العَارِ أن أسمَح...

سَاليِيرِى : مَاذَا؟

مُوزَار : لَيلَ نَهَار مَا يَزَالُ الرَّجُلُ بِمَلاَبِسِه السَّودَاءِ
يُطَارِدُنِى.
وَكَشَبَحٍ يَركُضُ خَلفِى
أينَمَا وَجَّهتُ خُطوَاتِى.
حَتَّى الآنَ، فَهوَ يَبدُو لِى
رَجُلاً ثَالِثًا يَجلِسُ مَعَنَا إلَى المِنضَدَة.

سالييرى : أُوه، هَيَّا!

إِنَّهَا خَيَالاَتٌ صبيَانِيَّةٌ، لاَ أَكثَر!

فَمِثلُ هَذِهِ المَخَاوِفِ بِلاَ أَسَاس.

فَلتَنفُضهَا عَنك!

كَانَ صَدِيقِى "بُومَارشِيه" يَقُولُ لِى:

"أَخِى سَالييِرِى،

عِندَمَا تَنتَابُكَ الأَفكَارُ السَّودَاء،

فَإِنَّ العِلاَجَ الذَّهَبِى

هُو أَن تَفتَحَ زُجَاجَةَ شَمبَانيَا

أَو تَقرَأَ "زَوَاج فِيجَارُو" ".

مُوزَار : بِالطَّبع!

كَانَ "بُومَارشِيه" صَدِيقًا لَك،

فَلَه أَلَّفتَ "تَارَار"،

يَا لَها مِن أُوبرَا مَرِحَة.

فِيهَا أَحَدُ الأَلحَان

أَتَرَنَّمُ بِهِ عَادَةً عِندَمَا أَشعُرُ بِالسَّعَادَة...

لاَ لاَ لاَ لاَ...

آه، أَحَقِيقِىٌّ، يَا سَالييِرى،

أَنَّ "بُومَارشِيه" قَد دَسَّ السُّم

ذَاتَ يَومٍ، لأحَدِ الأشخَاص؟

سَالييِرى : لاَ أَظُنُّ ذَلِك:

فقَد كَانَ ضَحُوكًا

إلَى حَدٍّ لاَ يَتلاَءَمُ وَمِثلِ هَذَا العَمَلِ الكَرِيه.

مُوزَار : لَقَد كَانَ عَبقَرِيًا،

مِثلَكَ وَمِثلِى.

وَالخِسَّةُ وَالعَبقَرِيَّةُ مُتَنَافِرتَان.

أَلَيسَ كَذَلِك؟

سَالييِرى : هَل تَظُن ذَلِك؟

(يدُس السُّم فى كأس مُوزَار)

وَلَكِنَّكَ لاَ تَشرَب.

مُوزَار : فِى صِحَّتِكَ، يَا صَدِيقِى،

وَلتَدُم الرَّابِطَةُ الحَقِيقِيَّة

التِى تَجمَعُ مُوزَار وَسَالييِرى مَعًا،

ابنَى النَّغَمِ وَالمُوسِيقَى.

(يشـرب)

سَالييِرى : انتَظِر!

انتَظِر، انتَظِر!

آه، لَقَد شَرِبتَ الكَأس!...

بِدُونِـى؟

مُوزَار : (يلقى منديله على المائدة)

كَفَى،

لاَ أُرِيدُ مَزِيـدًا.

(يذهب إلى البيانو)

وَالآنَ، يَا سَالِيِيرِى،

قُدَّاسِـى الجنَائِزِى.

(يعـزف)

أتَبـكِى؟

سَالِيِيرِى : لَم أَبكِ- مِن قَبل أَبَدًا- مِثلَ هَذِهِ الدُّمُوع،

دُمُوعٌ عَذبَةٌ وَمَرِيـرَةٌ فِى آن،

كَأَنَّ عِبئًا كَرِيهًا مِنَ الدُّيُون

قَد سَقَطَ عَنِّى،

أَو أَنَّ السِّكِّينَ الشَّافِيَة

قَد بَتَرَت- فِى رَحمَةٍ- عُضوًا فَاسِدًا!

فَيَا مُوزَار الطَّيِّب،

لاَ تُبَـالِ بِهَذِهِ الدُّمُوع.

أكمِلِ العَزف،

أَسـرِع لِتُشبِعَ رُوحِى بِالأنغَام...

موزار : لَو أنَّ كُلَّ امرئٍ أحَسَّ هَكَذَا بِقُوَّةِ المُوسيقَى!
لَكِن لاَ :
فَالأرجَحُ آنَئِذٍ أنَّ العَالَمَ سَيَتَوَقَّف:
فَلَن يَهتَمَّ أَحَدٌ بِالاحتِيَاجَاتِ الأسَاسِيَّة
لِلحَيَاة العَادِيَّة،
وَسَوفَ يَنذُرُ الجَمِيعُ نُفُوسَهُم بِحُرِّيَّةٍ لِلفَن،
كَم نَحنُ قِلَّة:
نَحنُ المَرحِونَ وَالصَّفوَة
القَادِرونَ عَلَى احتِقَارِ المَنفَعَة
وَخِدمَةِ رَبٍّ وَاحِدٍ كَمَا "الزِّيلُوتِيِّين"*: الجَمَال.
ألَيسَ كَذَلِك؟
وَلَكِنِّي لَستُ عَلَى مَا يُرَام اليَوم.
ثِقَلٌ مَا يَغشَانِي.
سَأمضِي وَأنَام.
إلَى اللِّقَاءِ إذًا!

سَاليِيرِي : وَدَاعًا.
(وحده)
سَيَدُومُ نَومُكَ يَا مُوزَار أبَدًا!

---

* طائفة دينية يهودية قديمة.

أَيُمكِنُ أَن يَكُونَ عَلَى حَق،
وَأَنِّى لَستُ عَبقَرِيًّا؟
الخِسَّةُ وَالعَبقَرِيَّةُ مُتَنَافِرَتَان.
لاَ يُمكِنُ أَن يَكُونَ الأَمرُ كَذَلِك.
وَ"بُونَارُوتِّى"؟
هَل شَوَّهَت سُمعَتَه الشَّائِعَاتُ الحَمقَاء؟
أَلَم يَرتَكِب الرَّجُلُ الذِى بَنَى الفَاتِيكَان
أَيَّةَ جَرِيمَةِ قَتلٍ، فِى الحَقِيقَة؟

١٨٣٠

حُورِيَّة المَاء

شاطئ الدِّنيبَر. طاحونة
الطَّحان وابنته

الطَّحَّان: هيه، أنتُن جَميعًا عَلَى نَفس الشَّاكِلَة،
أَيَّتُهَا الفَتَيَاتُ الطَّائِشَات،
حَمقَاوَاتٌ مُغَفَّلاَت.
فَعِنْدَمَا يُرسِلُ الحَظُّ لَكُنَّ رَجُلاً ذَا حَيثِيَّة،
هَدِيَّةٌ يُحسَدُ المَرءُ عَلَيْهَا،
فَوَاجِبكُنَّ الصَّرِيحُ هُو الارتِبَاطُ المَتِينُ بِه.
كَيْف؟
بِالسُّلُوكِ المُتَّزِنِ، العَفِيفِ،
الصَّارِمِ حِينًا، وَاللَّيِّنِ حِينًا،
بِالتَّقَلُّبِ إِزَاءَ عَاطِفَتِه.
تَلْمِيحَةٌ- أَحيَانًا، بِشَكْلٍ عَابِرٍ- إِلَى الزَّوَاج،
وَأَخيرًا، وَأَهَمُّ شَيءٍ، المُحَافَظَةُ عَلَى العُذْرِيَّة،

تِلْكَ الثَّرْوَةِ الَّتِى لاَ تُقَدَّرُ بِثَمَن،
وَالَّتِى إِن ضَاعَت ذَاتَ مَرَّةٍ، كَمَا تَجْرِى بِذَلِكَ الأَقْوَال،
فَلَن تُسْتَعَادَ أَبَدًا.
وَإِلاَّ، فَإِن لَم يَكُن هُنَاكَ أَمَلٌ فِى زَوَاجٍ صَادِق،
أَمَلٌ فِى أَجْرَاسِ الزِّفَاف،
فَعَلَى الأَقَل، إِذًا، يَجِب أَن تَحصُلْنَ عَلَى بَعْضِ المَزَايَا
لِعَائِلاَتِكُن،
بَعْضِ الفَوَائِدِ البَسِيطَة،
تَأَمَّلن، لِمَاذَا تَقُولُ الأُغنِيَةُ القَدِيمَة:
"إِنَّه لَن يُحِبَّنِى أَو يُحَاوِلَ إِسْعَادِى إِلَى الأَبَد!"
وَلَكِن، لاَ يَا عَزِيزَتِى
فَأَنتُنَّ لاَ تُفَكِّرنَ فِى انتِهَازِ الفُرَص!
لَيسَ هُو الوَقْت المُلاَئِم، هَكَذَا تَقُلْن،
وَتَفقِدْنَ عُقُولَكُن،
فَأَنتُنَّ سَعِيدَاتٌ بِتَحقِيقِ كُلِّ رَغَبَاتِه بِلاَ مُقَابِل،
سَعِيدَاتٌ بِالتَّعَلُّقِ بِرَقَبَةِ حُبِّكُنَّ طُولَ اليَوم،
وَلَكِن حُبَّكُنَّ الحَقِيقِىَّ اليَومَ هُنَا، وَغَدًا يَذْهَب،
وَأَنتُنَّ- مَهْجُورَاتٌ، خَاوِيَاتُ الوِفَاض،
هِيه، يَا لَكُنَّ مِن حَمقَاوَات.

أَلَم أقُل لَك مَائَة مَرَّة:
الآنَ، انتَبِهِى، يَا ابنَتِى،
لاَ تَكُونِى حَمْقَاء، لاَ تُضَيِّعِى الفُرَصَ، يَا فَتَاتِى،
لاَ تَدَعِى الأَمِيرَ يَتَسَرَّب مِن بَيْنِ أَصَابِعِك،
لاَ تَمْنَحِى نَفسَك بِلاَ مُقَابِل.
فَمَا هِىَ النَّتِيجَة؟
رُبَّمَا كَانَ عَلَيْكِ الآنَ أَن تَجْلِسِى
وَتَسْفَحِى دُمُوعَ عَيْنَيكِ الجَمِيلَتَينِ إِلَى الأَبَد.
فَلَن تُعِيدَه الدُّمُوع.

الابنة : وَلَكِن
مَا الَّذِى يَجْعَلُكَ تَظُنُّ أَنَّه لَم يَعُد يُحِبُّنِى؟

الطَّحَّان: مَاذَا تَقصُدِين؟
وَلَكِن كَيف؟
كَم مَرَّةً فِى الأُسبُوع
كَانَ مُعْتَادًا أَن يَزُورَ طَاحُونَتَنَا الفَقِيرَة؟
هيه؟
كُلَّ يَوْمٍ سَعِيد، وَأَحيَانًا مَرَّتَينِ فِى اليَوم-
ثُمَّ بَدَأَ فِى المَجِىءِ مَرَّاتٍ أَقَل،
فَمَرَّاتٍ أَقَل-

وَهَا هِىَ تِسعَةُ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ قَد مَرَّت مُنذُ كَانَ هُنَا.
فَمَاذَا تقُولِينَ فِى ذَلِك؟

الابنة : إِنَّه مَشغُول،
أَتَظُنُّ أَنَّه بِلاَ مَسئُولِيَّات؟
إِنَّه لَيسَ طَحَّانًا-
فَلاَ يُمْكِنُ أَن يَقِفَ وَيَترُكَ طَاحُونَةَ المَاءِ تَعْمَلُ بَدَلاً مِنه.
فَهوَ كَثِيرًا مَا يَقُول
إِنَّ عَمَلَه أَكثَرُ الأَعْمَالِ مَشَقَّةً فِى العَالَم.

الطَّحَّان: حَدُّوتَةٌ لَطيفَة.
فَمَتَى يَعْمَلُ الأُمَرَاء؟
مَا هُو عَمَلُهُم؟
صَيْدُ الثَّعَالِبِ، وَالأَرَانِبِ البَرِّيَّة،
إِقَامَةُ الوَلاَئم، وَالعَربَدَة،
وَإِرهَابُ الجِيرَانِ بِالصِّيَاح،
وَالتَّغرِيرُ بِمَثِيلاَتِك مِنَ السَّاذجَاتِ الفَقِيرَات.
عَلَيه أَن يَعْمَلَ بِنَفسِه،
فَيَا لَه مِن رَفِيقٍ بَائِس، يُعَانِى القَسْوَة!
وَالمَاءُ يَعْمَلُ بَدَلاً مِنِّى، حَقًّا!...
إِنَّنِى لاَ أَعرِفُ السَّلاَمَ بِاللَّيلِ أَوِ النَّهَار،

يَقِظٌ دَائِمًا!
حِينًا هُنَا، وَحِينًا هُنَاكَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى إِصلاَح،
البِلَى آنًا، وَآنًا الثُّقُوب.
لَو أَنَّكِ- فَقَط- سَأَلْتِ الأَمِير
مَبلَغًا صَغِيرًا مِنَ النُّقُودِ لِتَجدِيدِ الطَّاحُونَة
لأَمكَنَ عَمَلُ شَىءٍ مَا.

الابنَة : آه!

الطَّحَّان: مَا الخَبَر؟

الابنة : أَسمَعُ صَوْتَ وَقْعِ حَوَافِر!
حَوَافِرِ حِصَانِه... إِنَّه هُوَ!

الطَّحَّان: انظُرِى، يَا ابنَتِى،
تَذَكَّرِى نَصِيحَتِى، وَلاَ تَنسَى.

الابنة : هُو، هَا هُو

(يدخل الأمير. والسائس يقود حصانه بعيداً)

الأمِير : صَبَاح الخَير، يَا حُبِّى الغَالِى.
صَبَاح الخَير، أَيُّهَا الطَّحَّان.

الطَّحَّان: أَهلاً بِك، أَيُّهَا الأَمِيرُ الكَرِيم.
لَقَد مَرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ طَوِيل
مُنذُ تَشَرَّفنَا آخِرَ مَرَّةٍ بِطَلْعَتِكَ البَهِيَّة.

سَأَمضِى لأُحضِرَ لَكَ بَعضَ المُرَطِّبَات.

(يخرج)

الابنة : آه، أخيرًا جدًّا تَذكَّرتَنى!

أتَظُنُّ أن لَيسَ مِنَ العَارِ

أن تُسلِمَنى لِلعَذَابِ هَكَذَا طَوِيلاً

مَعَ الفرَاغِ، وَالقَلَقِ القَاسِى، وَالانتِظَار؟

آه لَو عَرفْتَ أيَّةَ أفكَارٍ رَاوَدَتْنِى!

أيَّةَ مَخَاوِفَ مُرعِبَةٍ سَحَقَت قَلْبِىَ البَائِس!

كَانَ يَتَهَيَّأُ لِى أحيَانًا أن الحِصَانَ قَد جَمَحَ بِك

إلَى أحَدِ المُستَنْقَعَات، أو المُنْحَدَرَات،

أو أنَّ دُبًّا قَتَلَكَ فِى الغَابَة،

أنَّكَ مَرِيض،

أو أنَّكَ لَم تَعُد تُحِبُّنِى-

وَلَكِن حَمْدًا لِلَّه!

فَأنْتَ مَا تَزَالُ حَيًّا وَبِخَير،

وَمَا تَزَالُ تُحِبُّنِى، كَمَا مِن قَبْل، يَا أمِيرِى،

ألَستُ عَلَى صَوَاب؟

الأمير : كَمَا مِن قَبل، يَا مَلاكِى.

لاَ، بَل أكثَرَ مِن ذِى قَبل-

هِى : لَكِنَّكَ تَبْدُو حَزِينًا.

مَا الخَبَرُ، يَا حَبِيبِى؟

الأمِير : هَل أَبْدُو حَزِينًا؟

لَقَد تَخَيَّلتِ أَنْتِ ذَلك.

لاَ، لاَ، فأنَا فَرِح

كَمَا دَائِمًا عِنْدَمَا أَرَاكِ، يَا حَبِيبَتِى.

هِى : لاَ،

فَعِنْدَمَا تَكُونُ فَرِحًا

فَإِنَّكَ تَأتِى جَريًا إِلَىَّ

وَتَصِيحُ وَأَنْتَ مَا تَزَالُ بَعِيدًا:

"أَينَ حُلْوَتِى، مَاذَا تَفْعَل؟"

ثُمَّ تُقَبِّلُنِى،

وَتَسْأَلُنِى:

إِن كُنْتُ سَعِيدَةً بِرُؤيَتِك؟

وَهَل تَوَقَّعْتُ أَن تَأتِى مُبَكِّرًا هَكَذَا؟

وَلَكِنَّكَ- الآنَ- تَسْتَمِعُ لِى وَلاَ تَقُولُ شَيئًا،

لاَ تُعَانِقُنِى، لاَ تُقَبِّلُ عَيْنَى،

مُؤَكَّدٌ، لَدَيكَ مَا يَبْعَثُ عَلَى القَلَق، مَا هُو؟

أَرُبَّمَا كُنتَ غَاضِبًا مِنِّى؟

الأمير : حَقًّا، فَالأَمْرُ لاَ يَسْتَحِقُّ الإِخْفَاء.
لَقَد خَمَّنت الحَقِيقَة!
فَقَلْبِى الآنَ مُثْقَلٌ بِالأسَى-
الأَسَى الَّذى لاَ تُبَدِّدُه الرِّقَّةُ أَو القُبُلاَتُ الحَارَّة،
لاَ يُمْكِنُ التَّخفيفُ منه، أَو حَتَّى المُشَارَكَةُ فِيه-

هِى : لَكنَّه جَارِحٌ لِى أَلاَّ أُشَارِكَكَ حُزْنًا وَاحِدًا-
بُح لِى بِسِرِّكَ، أَيُّهَا الأَمِير.
فَلَو لَم تُفصِح لِى عَنه، لَبَكَيْت،
وَلَو أَفصَحْتَ
لَمَا سَقَطَت منِّى دَمْعَةٌ بِالأَلَمِ عَلَى قَلْبِك.

الأمير : لِمَاذَا أُجَرجِرُه وَئِيدًا؟
فَالأَفضَلُ أَن أُعلنَه سَرِيعًا،
حَبِيبَتِى، عَلَيْكِ أَن تَعرِفِى
أَن لاَ سَعَادَةَ أَبَدِيَّةً فِى هَذَا العَالَم،
لاَ جَاهَ، وَلاَ جَمَال، لاَ قُوَّةَ، وَلاَ غِنَى،
لاَ شَىءَ يُمْكِنُ أَن يَحْمِينَا من ضَربَاتِ القَدَرِ العَميَاء.
وَنَحْنُ- أَلَيسَ صَحِيحًا، يَا حُلْوَتِى الصَّغِيرَة
أَنَّنَا قَد نِلْنَا الكَثِيرَ مِنَ السَّعَادَةِ مَعًا.
أَنَا، عَلَى الأَقل، كُنْتُ سَعِيدًا مَعَكِ، بِحُبِّكِ،

وَالآنَ، مَهْمَا جرَى لِى بَعْدَ ذَلك،
وَأَيْنَمَا أَكُونُ، سَأَتَذَكَّرُك، يَا حَبِيبَتِى،
فَفِى افتِقَادِك افتِقَادٌ لِثَرْوَةٍ لاَ تُعَوَّضُ أبَدًا.

هِى : أَنَا لاَ أَفْهَمُ تَمَامًا حَتَّى الآن كَلِمَاتِك،
لَكِنِّى مَرعُوبَة.
فَالقَدَرُ يُشْهِرُ تَهْدِيدًا مَا فِى وَجهَيْنَا،
يُعِدُّ لِكَارِثَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ، أَو مُنتَظَرَة.
لَيسَ- الفِرَاق؟

الأمير: لَقَد حَلَلْتِ اللُّغز.
فَالقَدَرُ يَقضِى بِأَن نَفْتَرِق.

هِى : لَكِن مَنذَا الَّذِى سَيُفَرِّقُنَا؟
أَلاَ أَستَطِيعُ أَن أَتبَعَكَ أَيْنَمَا تَمْضِى،
سَيْرًا عَلَى الأَقْدَامِ، إِذَا دَعَت الحَاجَة؟
سَأَرتَدِى ثِيَابَ صَبِى
وَسَأَخدِمُكَ بِعِنَايَةٍ وَإِخْلاَصٍ فِى الطَّرِيق،
أَو فِى المَيْدَانِ، عِنْدَ الحَرْب-
أَنَا لاَ أَخَافُ الحَرْب-
لَو أَنِّى سَأَرَاكَ فَحَسبُ وَأَكُونُ قَرِيبَةً مِنْك.
لاَ، لَن أُصَدِّقَ ذَلك!

فَإِمَّا أَنَّكَ تَضَعُنِى فِى امتِحَان
أَو أَنَّكَ تُرِيدُ إِغَاظَتِى- مِزحَةٌ فَارِغَة.

الأمِير : لاَ، لاَ، لَسْتُ فِى حَالَةٍ تَسْمَحُ بِالمزَاح،
وَلاَ حَاجَةَ بِى لأن أضعَكِ فِى امتِحَان،
وَلَيس عَلَىَّ أن أمضِى لِحَرْبٍ وَلاَ لِبِلاَدٍ بَعِيدَة.
سَأبقَى بِالبَيْت،
وَالآنَ، يَنبَغِى أن نَفْتَرِقَ، يَا حَبِيبَتِى، إِلَى الأَبَد.

هِى : انتَظِر، لَقَد فَهِمْتُ كُلَّ شَىء.
سَوْفَ تَتَزَوَّج؟
(الأمير صامت)
سَوفَ تَتَزَوَّج!

الأمِير : لاَبُدَّ لِى.
ضَعِى نَفسَكِ مَكَانِى، أَيَّتُهَا الطِّفْلَةُ البَائِسَة.
فَلَيسَ لِلأمِيرِ أن يُطِيعَ قَلْبَه كَالفَتَيَاتِ الصَّغِيرَات-
فَهوَ لَيسَ حُرًّا،
بَل يَخْتَارُ وِفقًا لِحِسَابَاتٍ وَضَعَهَا الآخَرُون
لِمَصلَحَةِ الآخَرِين...
الزَّمَنُ وَالرَّبُّ سَوفَ يُهَدِّئَانِ مِن حُزنِك،
فَلاَ تَنسَينِى،

وَخُذِى هَذَا التَّاجَ ذِكْرَى لِى-
سَأَضَعُهُ لَك.
وَأَحْضَرْتُ هَذِهِ القِلاَدَة، أيضًا-
تَعَالَى، خُذِيهَا- وَهَذَا أيضًا-
أَحضَرْتُهُ لأَبِيكِ الطَّيِّب.
فَلتُعطِيهِ لَه.
(يضع حقيبةً مليئةً بالذهب فى يدها)
وَدَاعًا-

هِى : لَحظَةً وَاحِدَة. هُنَاكَ شَىءٌ سَوف..
لَقَد نَسَيْت..

الأمير: تَذَكَّرِى.

هِى : بِالنِّسبَةِ لَكَ لَن أَفعَلَ شَيئًا...
لاَ، لَيسَ ذَلك...
انتَظِر، انتَظِر-
مُستَحِيل، لاَ يُمْكِنُ أَن تَترُكَنِى الآنَ إِلَى الأَبَد..
لاَ. كُلُّ ذَلكَ خَارِجَ المَوضُوع..
آه! لَقَد تَذَكَّرتُ الآن:
اليَومَ تَحَرَّكَ طِفلُكَ لِلمَرَّةِ الأُولَى فِى بَطنِى.

الأمير: أَيَّتُهَا الفَتَاةُ التَّعِيسَة! مَا الَّذِى يُمكِنُ أن نَفعَلَه؟

فَلْتَهْتَمِّى بِنَفسِكِ وَلَو مِن أَجْلِه،
وَلَن أهجُرَكِ أَنْتِ أَو طِفْلَكِ البَائِس.
فَعَاجِلاً أَو آجِلاً، رُبَّمَا آتِى بِنَفسِى لِزِيَارَتِك.
فَلتَهْدَئِى.
لاَ تَبْكِى.
هَيَّا، فَلآخُذكِ بَيْنَ ذِرَاعَىَّ لِلمَرَّةِ الأَخِيرَة.
(فى طريقه إلى الخارج)
أُوف! ذَلِكَ الـ...
عِبءٌ ثَقِيلٌ أُزِيحَ عَن كَاهِلِى.
لَقَد تَوَقَّعْتُ عَاصِفَةً،
لَكِنَّ الأُمُورَ مَرَّت بِسَلاَم.
(يخرج. تظل ساكنة)

الطَّحَّان: (وهو يدخل)
هَل لِى أَن أَدعُوكُم، أَيُّهَا الأَمِير،
إِلَى مَبنَى الطَّاحُونَة...
أَينَ ذَهَب؟
قُولِى لِى، أَينَ أَمِيرُنَا؟
بَاه، بَاه، بَاه! يَا لَه مِن تَاج!
إِنَّه يَلْمَعُ بِالجَوَاهِرِ، وَيَتَوَهَّجُ كَالنَّار!

وَلآلِئُ أيضًا!...
حَسَنٌ، لاَبُدَّ أَنَّهَا هَدِيَّةٌ مَلَكِيَّة.
آه، يَا لَهُ مِن مُحسِنٍ!
وَمَا هَذَا؟ حَقيبَة!
لَيسَت نُقُودًا، أَهِيَ كَذَلك؟
لِمَاذَا تَقِفِينَ هُنَاكَ بِلاَ رَد؟ بِلاَ كَلِمَة؟
أَم أَنَّكِ جُنِنت مِنَ الفَرَحِ بِهَذَا الحَظِّ المُفَاجِئ،
أَو أُصِبتِ بِالتَّشَنُّج؟

الابنَة : لاَ، لاَ أُصَدِّق، فَذَلِكَ مُستَحِيل.
لَقَد أَحبَبتُه كَثِيرًا.
أَم أَنَّه حَيَوَانٌ مُتَوَحِّش؟
أَو أَنَّ قَلْبَه بَرِّيٌّ، فَظ؟

الطَّحَّان: مَاذَا تَعْنِينَ، يَا فَتَاتِي؟

الابنَة : قُل لِي يَا أَبِي، مَا الَّذِي فَعَلتُه حَتَّى يَغضَب؟
أَفِي أُسبُوعٍ قَصِيرٍ وَاحِدٍ ذَوَى كُلُّ جَمَالِي؟
أَم رُبَّمَا سَحَرَتهُ تَعوِيذَةٌ شِرِّيرَة؟

الطَّحَّان: مَا الَّذِي يَجْعَلُكِ تَقُولِين ذَلك؟

الابنَة : لَقَد ذَهَبَ يَا أَبِي.
إِنَّه يَعْدُو هُنَاكَ، بَعِيدًا!

وَكُنْتُ مِنَ الجُنُونِ حَتَّى أَنِّى تَرَكْتُه يَمْضَى،
لَم أَتَشَبَّث بِمِعطَفِه،
لَم أَقفز لأُمسِكَ بِعنَانِ جَوَادِه وَأَتَعَلَّقَ بِه!
فَرُبَّمَا، عَلَى الأَقل، أَطَاحَ بِيَدَىَّ غَاضِبًا
لِتَتَحطَّمَا مِنَ المِعصَمَين،
رُبَّمَا سَحَقَنِى حِصَانُهُ تَحْتَ حَوَافِرِه حَتَّى المَوت.

الطَّحَّان: هَل جُنِنت؟

الابنَة : وَلَكنَّكَ لاَ تَفْهَم...
فَلَيسَ لِلأَمِيرِ أَن يُطِيعَ قَلْبَه كَالفَتَيَاتِ الصَّغِيرَات.
فَهوَ لَيسَ حُرًّا فِى أَن يَختَار...
لَكنَّه حُرٌّ، كَمَا يَبْدُو، فِى الإِغوَاء،
فِى قَطْعِ العُهُودِ وَالبُكَاء،
فِى أَن يَعِدَ: سَوْفَ آخُذُكِ، يَا حُلوَتِى،
لِتَعِيشِى فِى قَصرِى الجَمِيل،
وَسَأَكسُوكِ بِالمَخْمَلِ وَالقَصَب...
لَكنَّه حُرٌّ فِى أَن يُعَلِّمَ الفَتَيَاتِ الفَقِيرَات
أَن يَنهَضنَ فِى مُنْتَصَفِ اللَّيل
وَيَأتِينَ عَلَى صَفِيرِه
لِيَجلِسنَ وَرَاءَ الطَّاحُونَةِ حَتَّى شُرُوقِ الصَّبَاح-

فَقَلْبُهُ النَّبِيلُ مَأْخُوذٌ بِمَصَائِبِنَا الصَّغِيرَة،
وَيُعِيرُ آذَانًا صَاغِيَةً لَهَا-
بَعدَئِذٍ: وَدَاعًا الآنَ، يَا حَبِيبَتِى،
وَلتَمْضِى فِى طَرِيقِكِ فِى سَلاَم،
وَلْتُحِبِّى مَن يَأسِر خَيَالَك.

الطَّحَّان: آه، هَكَذَا الأمرُ إذًا.

الابنَة: وَلَكِن مَن سَتَكُونُ العَرُوس؟
إِنِّى أَتَسَاءَل، مِن أَجْلِ مَن قَايَضَ بِى؟
آه، سَوْفَ أَكْتَشِفُهَا،
سَوْفَ أَعثُرُ عَلَى السَّاحِرَةِ الَّتِى بِلاَ قَلْب،
وَأَقُولُ لَهَا صَرَاحَةً:
فَلتَترُكِى الأَمِيرَ وَشَأنَه،
فَلاَ تَصِيدُ فِى نَفسِ الوَادِى ذِئبَتَان.

الطَّحَّان: فَتَاةٌ وَقِحَةٌ، سَخِيفَة!
فَإِذَا كَانَ الأَمِيرُ يُرِيدُ أَن يَتَّخِذَ عَرُوسًا
فَمَن الَّذِى يَسْتَطِيعُ مَنْعَه؟
فَلتَتَصَرَّفِى بِاستِقَامَة.
أَلَم أَقُل لَك دَائِمًا...

الابنَة: لَقَد تَركَنِى كَرَجُلٍ طَيِّبٍ، كَرِيم

وَأعطَانِى هَدَايَا وَنُقُودًا!
مَاذَا تَظُنُّ فِى ذَلِك!-
إنَّه يُخَلِّصُ نَفسَه بِالنُّقُود، تِلْكَ هِىَ المَسألَة!
لَقَد ظَنَّ أَنَّه يَسُدُّ فَمِى بِذَهَبِه وَفضَّتِه،
فَلاَ تَصِلَ إلَى أمِيرَتِهِ الشَّابَّةِ البَرِيئَة
سُمْعَةٌ شَائِنَة.
آه حَقًا، لَقَد نَسَيت،
فَقَد طَلَبَ مِنِّى أن أُعطِيَكَ حَقِيبَةَ النُّقُودِ هَذِهِ
لِكَرَمِكَ مَعَه،
إذ تَرَكْتَ ابنَتَكَ تَتْبَعُه كَأَيَّةِ عَاهِرَة
دُونَ أَن تَفرِضَ رَقِيبًا يَقِظًا عَلَى شَرَفِهَا...
سَوفَ تَكُونُ أنتَ الوَحِيدَ المُستَفِيدَ مِن دَمَارِى.
(تسلمه الحقيبة)

الطَّحَّان: (باكيًا)

يَا شَيبَتِى التَّعِسَة!
مَا الَّذِى فَعَلتُه حَتَّى أَسمَع ذَلِك!
العَارُ، العَارُ المَرِيرُ عَلَيْك
إذ تُلحِقِينَ بِأَبِيك العَجُوزِ السُّخرِيَةَ المُهِينَة.
أَنتِ وَحِيدَتِى، كُلُّ مَا أملِك،

وَالرَّاحَةُ الوَحِيدَةُ لِعُمْرِى الوَاهِى.
لَم أَكُن أَملِكُ غَيرَ تَدلِيلِك، فَهَل أَملِكُه الآن؟
لَقَد عَاقَبَنِى الرَّبُّ عَلَى افتِقَارِى لِلصَّرَامَة
فِى أَدَاءِ وَاجِبِى الأَبَوِى.

الابنَة : آه، أَنَا أَختَنِق!
حَيَّةٌ ثَلجِيَّةٌ تَلْتَصِقُ بِرَقَبَتِى وَتَعْتَصِر!
الحَيَّة! لَقَد جَدَلَ حَيَّةً لِى،
وَلَيسَ قِلاَدَةً مِن لُؤلُؤ!...
(تمزق القلادة عن رقبتها)

الطَّحَّان: فَكِّرِى فِيمَا تَفعَلِين!

الابنَة : هَكَذَا! وَهَكَذَا!
سَأُمَزِّقُك إِربًا، أَيَّتُهَا الحَيَّةُ بِلاَ قَلْب،
أَيَّتُهَا السَّارِقَةُ المَلْعُونَةُ لِقَلْبِ حَبِيبِى!

الطَّحَّان: أَنْتِ تَهذِين، يَا ابنَتِى، تَهذِين.

الابنَة : (وهى تخلع تاجها)
هَا هُو تَاجِى، تَاجٌ مِن عَار!
هَا هُو تَاجُ العُرْسِ الَّذِى وَضَعَهُ الشَّيطَانُ عَلَى رَأسِى
عِندَمَا فَقَدتُ كُلَّ مَا كُنْتُ أَملِكُ مِن مَحَبَّة.
عُرسُنَا انتَهَى-

فَلتَمُت، إذًا، يَا تَاجِى

(ترمى بالتاج إلى نهر الدِّنيبَر)

الآنَ انتَهَى كُلُّ شَىء..

(ترمى بنفسها إلى النهر)

العجُوز: (متهاويًا إلى الأرض)

آه، الرُّعب، الرُّعب!

قصر الأمير

حفل زفاف. العريس والعروس يجلسان إلى منضدة.
ضيوف. جوقة من الفتيات الصغيرات.

الخَاطِبة: لَقَد جَعَلْنَا منهُ عُرسًا سَعيدًا، حَقًّا.
فَفِى صِحَّتِكَ، إذًا، أَيُّهَا الأمِير،
وَصِحَّةِ عَرُوسنَا الشَّابَّة، أميرتِنَا!
فَلْيَمْنَحْكُمَا الربُّ أيَّامًا طَوِيلَةً سَعِيدَةً مَعًا،
وَنَحْن- طَعَامًا طَيِّبًا وَوَفِيرًا عَلَى مَائدَتِك.
فَلمَاذَا، أَيَّتُهَا الْفَتَيَاتُ الْجَميلاَتُ، حَلَّ بِكُنَّ الصَّمْت؟
أم أَنَّكُنَّ غَنَّيْتُنَّ مِن قَبْل كُلَّ أَغَانِيكُن الْجَمِيلَة؟
أَم أَنَّ حُلُوقَكُنَّ الْبَيْضَاءَ جَفَّت مِنَ الإفرَاطِ فِى الغنَاء؟

الجُوقَة: أَيَّتُهَا الْخَاطِبَةُ، الْخَاطِبَة

خَاطِبَةٌ عَجُوزٌ وَغَبِيَّة!
ذَهَبَت لِتَأتِى بِالْعَرُوس
فَضَلَّت الطَّرِيقَ فِى الدَّاخِلِ،
وَوَرَاءَ الْكُوخِ فِى الْخَارِجِ
أَفْرَغَت بِرْمِيلَ بِيرَة
عَلَى حَقْلِ الْكُرُنْب
ثُم هَوَت فِى قَنَاةِ الأوحَال،
انْحَنَت احْتِرَامًا لأَعْمِدَةِ البَوَّابَة،
"أَيَّتُهَا الأَعْمِدَةُ اللَّطِيفَة
دُلِّينِى، أَرْجُوك، عَلَى الطَّرِيق
لآتِى بالعَرُوسِ الْيَوم"
حَزِّرِى، أَيَّتُهَا الْخَاطِبَة!
أَيْنَ كِيسُ نُقُودِك، أَيَّتُهَا الْخَاطِبَة؟
فِى الْكِيسِ تَدُورُ النُّقُود
لِتُدَاوِى الْفَتَيَاتِ الْجَمِيلاَتِ الْمُحْتَرِقَات.
الخاطبة: أَيَّتُهَا الْوَضِيعَاتُ، أَيَّةُ أُغْنِيَة هَذِه!
هَا هِى، هَا هِىَ، وَاتْرُكْنَ الْخَاطِبَة!
(تعطى الفتيات نقودًا)
صوتٌ منفرد: حَيْثُ يَسْتَلْقِى الْحَصَى وَتَصْفُو الرِّمَالُ الصَّفْرَاء،

رَكَضَ النَّهْرُ بِسُرْعَةٍ كَبِيرَة.

فِى النَّهْرِ الرَّاكِضِ كَانَت سَمَكَتَان صَغِيرَتَان تَسْبَحَان،

سَمَكَتَان، اثْنَتَان صَغِيرَتَان.

فَهَل سَمِعْتِ آخِرَ الأَنْبَاءِ، يَا أُخْتِى الصَّغِيرَة؟

أَنْبَاءِ مَا جَرَى بِنَهْرِنَا؟

كَيْفَ أَنَّ فَتَاةً جَمِيلَةً مَاتَت بِالأَمْسِ غَرِيقَة،

كَيْفَ أَغْرَقَت نَفْسَهَا، وَلَعَنَت حَبِيبَهَا وَهِىَ تَمُوت؟

الْخاطِبة: يَا جَمِيلاَتِى، أَيَّةُ أُغْنِيَةٍ تُغَنِّينهَا الآن!

إِنَّهَا لَيْسَت أُغْنِيَةَ زِفَاف، وَهِىَ غَيْرُ مناسِبَةٍ أَبَدًا،

مَن التِى اخْتَارَتْهَا؟

هه؟ مَن اخْتَارَتْهَا؟

الفتيات: لَسْتُ أَنَا-

لَسْتُ أَنَا-

لَسْنَا نَحْن...

الخاطِبة: مَن الَّتِى غَنَّتْهَا إِذًا؟

(همس وفوضى وسط الفتيات)

الأمير: أَنَا أَعْرِفُ مَن.

(يترك المنضدة، وبهدوء يُصدر تعليمات إلى السائس)

فَتِّش عَن ابنَةِ الطَّحَّان،

وَابْعِدهَا عَن هُنَا- وَبِسُرْعَة.
وَابْحَث عَمَّن جَرُؤَ عَلَى السَّمَاحِ لَهَا بِالدُّخُول.
(يتجه السائس إلى الفتيات)

الأمير : (يُحدث نفسه، وهو يجلس)
رُبَّمَا أَتَت مُسْتَعِدَّةً لإِفْسَادِ الْحَفْلِ بِالشِّجَار
فَلاَ أَعْرِف أَيْنَ أُخْفِى وَجْهِى مِنَ الْعَار.

السائس: لَم أَسْتَطِعِ الْعُثُورَ عَلَيْهَا وَسْطَ الأُخْرَيَات، أَيُّهَا الأَمِير.

الأمير : اذهَب، فَتِّش مِن جَدِيد.
أَعْرِفُ أَنَّهَا هُنَاك.
لَقَد كَانَ صَوْتَهَا، مَا غَنَّى تِلْكَ الأُغْنِيَة.

ضيف : يَا لَهَا مِن خَمْرٍ رَائِعَة!
تَسْرِى مُبَاشَرَةً إِلَى الرَّأس-
وَإِلَى الأَقْدَام-
مُؤسِفٌ أَنَّهَا مُرَّة: فَلْتُقَطِّرُوهَا لَنَا.
(العروس والعريس يتعانقان.
تُدوِّى صرخةٌ ضعيفة)

الأمير : إِنَّهَا هِى!
هِىَ صَرْخَتُهَا الْحَاسِدَة.
(إلى السائس)

حَسَنٌ، هَل وَجَدْتَهَا؟

السائس: لَم أَستَطِعِ الْعُثُورَ عَلَيْهَا فِى أَىِّ مَكَان.

الأمير: أَيُّهَا الأَبْلَه.

وكيل العروس: (وهو ينهض)

أَلَيْسَ هوَ الْوَقْت

الَّذِى يَأْوِى فِيهِ الْعَرِيسُ وَالْعَرُوسُ إِلَى الْفِرَاش

وَنَحْنُ نُمْطِرُهُم- عِنْدَ الْبَابِ- بِالآمَال؟

(ينهض الجميع)

الخاطبة: أَيَّتُهَا الأَوْقَاتُ السَّعِيدَةُ، حَقًّا، تَعَالَى،

وَقَدِّمِى الدِّيكَ الصَّغِير.

(يقدَّم إلى العروس والعريس ديكٌ مشوى

ويتلقون الأمنيات، ويتجهان إلى غرفة النوم)

الخاطبة: أَيَّتُهَا الأَمِيرَةُ الحُلْوَةُ، لاَ تَصْرُخِى، لاَ تَخَافِى،

وَافْعَلِى كَمَا يَطْلُب.

(يأوى العريس والعروس إلى غرفة النوم،

يغادر الضيوف، عدا الخاطبة ووكيل العروس)

وكيل العروس: أَيْنَ كَأْسِى؟

فَعَلَىَّ أَن أَظَلَّ سَاهِرًا طُولَ اللَّيْلِ عَلَى الْجَوَاد

تَحْتَ نَوَافِذِهِمَا،

فَيَجِبُ أَلاَّ تَنْقُصَ قَطْرَةٌ مِنَ الْخَمْرِ تُعِينُنِى عَلَى الْمُهِمَّة.

الخاطبة: (وهى تصب له كأسًا)

هَا هُو، فَلْتَشْرَب.

وكيل العروس: أُوف! شُكْرًا للرَّب

لَقَد مَضَى كُلُّ شَىْءٍ عَلَى مَا يُرَام،

أَلاَ تَظُنِّين ذَلك؟

كَانَ حَفْلُ الزِّفَاف رَائِعًا-

الخاطبة: حَقًّا، فَالشُّكْرُ للرَّب،

مَضَى كُلُّ شَىْءٍ عَلَى خَيْر،

إِلاَّ شَيئًا وَاحِدًا.

وكيل العروس: مَاذَا، مَا هُو؟

الخاطبة: كَانَت أَرْوَاحًا شِرِّيرَة

هِىَ الَّتِى غَنَّت تِلْكَ الأُغْنِيَةَ الْمَشْئُومَة،

الَّتِى لاَ تُنَاسِبُ أَبَدًا حَفَلاَتِ الزِّفَاف.

وكيل العروس: تِلْكَ الْفَتَيَاتُ الشَّيْطَانِيَّات-

لاَ ثِقَةَ فِيهِن إِلاَّ فِى نَصْبِ الْمَكَائِد.

لَم يَسْمَع أَحَدٌ عَن مِثْلِ ذَلِكَ أَبَدًا!

فَأَن تُفْسِدِى زِفَافًا مَلَكِيًّا- مِن أَجْل...

وَلَكِن يَجِبُ أَن أَمضِى إِلَى جَوَادِى،

لَيْلَةً طَيِّبَةً، أَيَّتُهَا الأُمُّ الطَّيِّبَة.

(يخرج)

الخاطبة: قَلْبِى لاَ يَسْتَقِرُّ دَاخِلِى!

فَهَذَا الزَّوَاجُ لَم يَتِم فِى سَاعَةِ سَعْد.

غرفة مُشمِسة

الأميرة ومربيتها

الأميرة: أَصْغى- فَأَنَا أَسْمَعُ الطُّبُول!

لاَ، لَم يَعُد بَعْد.

آه، نَانِى الْعَزِيزَة، فَعِنْدَمَا كَانَ يَتَوَدَّدُ إِلَىْ،

لَم يَكُن يَتْرُكنِى وَحِيدَةً أبَدًا، يَومًا بَعْدَ يَوم،

كَانَ يَبْدُو كَأَنَّ عَيْنَيْه لاَ تَشْبَعَان مِنِّى،

وَتَزَوَّجَنِى، وَتَغَيَّرَ كُلُّ شَىْء.

الآن، يُوقِظُنِى عِنْدَ شُرُوقِ الْفَجْر

وَيَأمُرُ، وَأَنَا يَقْظَى، بِإِعْدَاد جَوَاده،

ثُم يَنْطَلِقُ، يَعْلَمُ الرَّبُّ إِلَى أَيْن، حَتَّى حُلُولِ الْمَسَاء.

وَنَادِرًا مَا يَعْثُرُ عَلَى كَلِمَةٍ رَقِيقَةٍ لِى، عِنْدَمَا يَعُود.

نَادِرًا مَا يَمْنَحُنِى لَمْسَةً شَارِدَةً عَلَى وَجْهِىَ الطَّاهِرِ الْجَمِيل.

المُربية: يَا أميرَتِى الصَّغيرَة، الرَّجُلُ يُشْبِهُ الدِّيكَ الْمُخْتَال:
كُوك-آ-دُو-دُو! يُرَفْرِفُ ثُم يَنْطَلِقُ طَائِرًا.
وَالْمَرأَةُ، كَدَجَاجَة حَاضِنَة خَجُول،
يَجِبُ أَن تُحَافِظَ عَلَى عُشِّهَا
وَتَحْتَضِنَ أَفْرَاخَهَا الْوَلِيدَة.
فَعِندَمَا كَانَ يُحَاوِلُ الظَّفَرَ بِك،
كَانَ لاَ يَقرَبُ الطَّعَامَ أَو الشَّرَاب،
بَل يَجْلِسُ وَيُحَمْلِق.
وَلَكِن مَا إِن تَزَوَّج-
حَتَّى أَصْبَحَ لَدَيْه الْكَثِيرُ مِنَ الْمَشَاغِل:
فَيَجِبُ زِيَارَةُ الْجِيرَان،
يَجِبُ الْخُرُوجُ لِلصَّيْدِ مَعَ صُقُورِه،
وَأَخِيرًا- حِينَ يَتَلَبَّسَه الشَّيْطَانُ- يَخْرُجُ لِلْحَرْب.
إِنَّه يَمْضِى هُنَا وَهُنَاك- إِلَى كُلِّ مَكَان،
عَدَا الْبَيْت.

الأميرة: مَاذَا تَظُنِّين؟
أَيُخْفِى- رُبَّمَا- سِرًّا مَا،
عَشِيقَةً مَا سِرِّيَّة؟-

المُربية : إِنَّهَا لَخَطِيئَةٌ أَن أَقُولَ ذَلِك، يَا حَبِيبَتِى:

فَأَيْن سَيَجِدُ امرَأَةً جَمِيلَةً بَدِيلَةً لَك؟

وَلَدَيْكِ كُلُّ شَىْء:

فَأَنْتِ عَاقِلَةٌ وَجَمِيلَة،

رَقِيقَةُ الأُسْلُوب.

حَقًّا، فَكِّرِى:

أَيْنَ يُمْكِنُ أن يَجِدَ نَظِيرَتَكِ، أَيَّتُهَا الأَمِيرَة؟

الأميرة: لَو يَسْتَجِيبُ الرَّبُّ لِصَلَوَاتِى، لَمَنَحَنِى أَطْفَالاً.

بِذَلِك سَيَكُونُ لَدَىَّ مَا أَقْهَرُ بِه نَوَازِعَه الْجَدِيدَة.

آه، انظُرِى، فَالسَّاحَةُ مَلأَى بِالصَّيَّادِين.

وَهَا هُوَ أَخِيرًا قَد عَادَ إِلَى الْبَيْت.

فَلِمَاذَا، رَغْمَ ذَلِكَ، لاَ أرَاه؟

(يدخل أحد الصيادين)

أَيْنَ الأَمِير؟

الصيَّاد: أَمَرَنَا أَن نَتْرُكَه وَنَأتِى إِلَى الْبَيْت.

الأميرة: وَلَكِن.. أَيْنَ هُو؟

الصيَّاد: يَتَمَشَّى وَحِيدًا فِى الْغَابَاتِ الَّتِى تُوَشِّى الدِّنِيبَر.

الأميرة: وَوَاتَتْكُم الْجُرْأَةُ عَلَى أَن تَتْرُكُوهُ وَحِيدًا،

بِلاَ مُرَافِقِين،

يَا لَكُم مِن حَاشِيَةٍ مُخْلِصَة!

فَلْتَعُد حَالاً، فِى هَذِهِ اللَّحْظَة، مَعَ عَدْوِ الْجَوَاد،
وَتُخْبِرُه أَنَّ أَنَا مَن أَرْسَلَتْكَ إِلَيْه.
(يخرج الصيَّاد)
آهِ، أَيَّتُهَا السَّمَاءُ الرَّحِيمَة!
فَفِى لَيْلِ الْغَابَات
أَشْبَاحُ الْيَائِسِين، وَالْحَيَوَانُاتُ الْوَحْشِيَّة،
وَالأَرْوَاحُ الشِّرِّيرَة-
الْخَطَرُ فِى كُلِّ مَكَان.
أَوْقِدِى الشَّمْعَةَ، بِسُرْعَةٍ، هُنَا أَمَامَ الأَيْقُونَة.

المربية: حَالاً، يَا حَبِيبَتِى، حَالاً...

نَهر الدِّنيبَر. الليـل

حوريات المَاء: فِى مَوْكِبٍ بَهيج
مِن أَعْمَاقِ التَّيَّار
يَشُدُّنَا إِلَى أَعْلَى الْقَمَر
لِنَسْتَضِىءَ فِى شُعَاعِه.
نَهْجُرُ الْمَاءَ وَقَاعَ النَّهْر،
مَرِحِينَ أَمَامَ مَوْتَى اللَّيْل،
وَرُءوسُنَا تَشُقُّ السَّطْحَ الزُّجَاجِى
فَنَخْرُجُ بَحْثًا عَن الضَّوْء.
هَا هِىَ أَصْوَاتُنَا، تُنَادِى، أَلِيمَةً،
رَنَّانَةً خِلاَلَ الأَثِيرِ الْعُلْوِى،
وَهَا هُوَ شَعْرُنَا الأَخْضَر،
مُرْتَعِدًا ظَامِئًا فِى الرِّيَاحِ الْمُلْتَوِيَة،

يَقْطُرُ بالمَاء.

حُوريَّة: يَا أَخَوَاتِى، استَمِعْنَ، أَنصِتن، هُس!
شَىءٌ مَا يَتَحَرَّكُ فِى ظَلاَمِ الْغَابَة...

أخرَى: انظُرْنَ، فَبَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقمَر
شَخْصٌ مَا يَمْشِى عَلَى الأَرْض.
(يختفين)

الأمير: كَم أَعْرِفُ جَيِّدًا هَذِهِ البِقَاعَ الْحَزِينَة!
أَذكُرُ كُلَّ عَلاَمَة-
هَا هِىَ الطَّاحُونَة!
هَوَت إِلَى الهِجْرَانِ، كَوْمَةٌ مِن خَرَاب،
وَالصَّوْتُ الْبَهِيجُ لِلْعَجَلاَتِ الدَّوَّارَةِ صَامِت،
لَم يَعُد رَحَى الطَّاحُونَة يَطْحَنُ شَيْئًا-
وَالرَّجُلُ الْعَجُوزُ فِيمَا يَبْدُو مَات.
لَم يَنْدِب ابْنَتَه سَيِّئَةَ الطَّالِعِ طَوِيلاً.
وَهُنَاكَ طَرِيق.. لَقَد كَسَاهُ الْعُشْب.
لِسَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ لَم يَأتِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ أَحَد،
وَهُنَا كَانَت حَدِيقَةٌ ذَاتُ سِيَاجٍ عَالٍ.
أَيُمكنُ أَن تَكُونَ قَد استَحَالَت إِلَى فَوْضَى هَذَا الدغَل؟
آه، هَا هِىَ شَجَرَةُ السِّنْدِيَانِ الْمَصِيرِيَّة،

حَيْثُ وَقَفْت، وَتَشَبَّثَ بِى ذِرَاعَاهَا،
تَنْحَنِى مُتَهَدِّلَةً، صَامِتَة-
أَكَانَ حَقِيقِيًّا كُلُّ ذَلِك؟...
(يصعد إلى الشجرة، فيتساقط
عليه وابلٌ من الأوراق)
مَاذَا يَعْنِى ذَلِك؟
فَالأَوْرَاقُ تَصْفَرُّ أَمَامَ عَيْنِى،
وَتَلْتَفُّ عَلَى نَفْسِهَا، وَتَسْقُطُ مَعَ الْحَفِيف
كَالرُّفَاتِ حَوْلِى.
هَا هِىَ الشَّجَرَةُ تَنْتَصِبُ سَوْدَاءَ عَارِيَةً
كَشَىءٍ مَلْعُون.
(يدخل رجلٌ عجوزٌ، أشعث، شبه عارٍ)

العجوز: صَبَاح الخَير، يَا زَوْجَ ابْنَتِى

الأمير: مَن أَنْت؟

العجوز: غُرَاب،
أَعِيشُ هُنَا

الأمير: أَذَلِكَ مُمْكِن؟
الطَّحَّان!

العجوز: لَم أَعُد أُسَمَّى طَحَّانًا!

فَقَد بِعْتُ طَاحُونَتِى إِلَى الأَشْبَاحِ العَاوِيةِ خَلْفَ الْمَوْقِد،
وَأَعْطَيْتُ النُّقُودَ إِلَى حُورِيَّاتِ الْمَاء،
لِيَحْتَفِظْنَ بِهَا لابْنَتِى، أَكْثَرِهُن حِكْمَة.
هِىَ الآنَ مَدْفُونَةٌ فِى أَعْمَاقِ رِمَالِ الدِّنِيبَر.
وَتَقِفُ حَارِسًا عَلَيْهَا سَمَكَةٌ عَوْرَاء.

الأمير: لَقَد جُن! يَا لَه مِن رَجُلٍ تَعِيس،
تَنَاثَرَت أَفْكَارُه كَغَيْمَةٍ بَدَّدَتْهَا الْعَاصِفَة.

العجُوز: لَقَد أَتَيتَ مُتَأَخِّرًا.
كَانَ عَلَيْكَ أَن تَأتِى اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَة-
كَانَ لَدَيْنَا احْتِفَالٌ، وَانْتَظَرْنَاكَ طَوِيلاً.

الأمير : مَن الَّذِى انْتَظَرَنِى؟

العجُوز: مَن؟ ابْنَتِى، وَمَن أَيْضًا؟
أَنْتَ لاَ تَعْرِفُ أَنِّى لاَ أَنْظُرُ أَبَدًا مِن بَيْنِ أَصَابِعِى،
وَيُمْكِنُكَ أَن تَفْعَلَ مَا يَحْلُو لَك:
وَهِىَ يُمْكِنُهَا أَن تَجْلِسَ مَعَكَ طُولَ اللَّيْل،
حَتَّى صِيَاحِ الدِّيك، لَو أَحْبَبْت.
وَالْكَلِمَةُ الَّتِى تُقَالُ لِى هِىَ: اخرَس.

الأمير : يَا لَه مِن طَحَّانٍ بَائِس!

العجُوز: لَم أَعُد طَحَّانًا، أَيُّهَا الرَّجُل.

فَقَد أَخْبَرْتُكَ مَن أَنَا.
غُرَابٌ، لاَ طَحَّان.
لَقَد كَانَ أمرًا غَرِيبًا!
فَعِنْدَمَا أَلْقَت بِنَفْسِهَا إِلَى النَّهْر (أَتَذْكُر؟)،
جَرَيْتُ خَلْفَهَا
وَكُنْتُ أَنْوِى أَن أَقْفِزَ مِن نَفْسِ الصَّخْرَة،
لَكِنِّى فَجْأَةً أَحْسَسْتُ بِجَنَاحَيْن قَوِيَّيْن
يَنْبُتَانِ مِن إِبِطَىّ،
وَحَمَلاَنِى عَالِيًا مُعَلَّقًا فِى الْهَوَاء.
وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى الآن
وَأَنَا أُحَلِّقُ هُنَا وَهُنَاك،
وَبَيْنَ حِينٍ وَآخَر، أَلْتَقِطُ جِيفَةَ-
بَقَرَةٍ مَيِّتَةٍ، رُبَّمَا-
أَو أَحُطُّ عَلَى الْمَقَابِرِ وَأَنْعب

الأمير: أَمْرٌ يَدْعُو لِلرِّثَاء!
مَن يَرْعَاكَ، أَيُّهَا الْعَجُوز؟

العجوز: يَا لَهَا مِن فِكْرَة!
فَأَنَا أَحْتَاجُ لِلرِّعَايَة.
فَإِذ أَصْبَحْتُ عَجُوزًا، فَإِنَّنِى عُرْضَةٌ دَائِمًا لِلْخَدِيعَة.

وَلَكِن عَلَىَّ أن أَشْكُرَ نُجُومِى السَّعِيدَةَ
فَلَدَىَّ طِفْلَةُ الْمَاءِ تَرْعَانِى.

الأمير: مَن؟

العجُوز: حَفِيدَتِى.

الأمير : لاَ.

لاَ أَستَطِيعُ مُتَابَعَةَ مَا يَقُول:
سَتَمُوتُ جُوعًا هُنَا فِى الْغَابَة، أَيُّهَا الْعَجُوز
أَو يَفْتَرِسُكَ أَحَدُ الْحَيَوَانَات الْمُتَوَحِّشَة.
أَلاَ تَأتِى فَتَعِيشَ مَعِى فِى الْبَيْت؟

العجُوز: مَعَك؟ لاَ! شُكْرًا!

فَسَوْفَ تُغْوِينِى،
وَسَاعَتَهَا سَتَخْنِقُنِى بِاللآلِئ.
هُنَا أنَا حَى، وشَبْعَانٌ، وَحُر.
لَن أَذْهَبَ مَعَك.

(يخرج)

الأمير: ذَلِكَ كُلُّه حَقِيقِى. رَهِيب.

فَأَن يَمُوتَ الْمَرْءُ أَهْوَنُ من أن يَفْقِدَ عَقْلَه.
فَنَحْنُ نَنْظُرُ لِلْجُثَّةِ بِالتَّوْقِيرِ الْوَاجِب،
وَنُصَلِّى لَهَا.

وَالْمَوتُ يَجْعَلُ الْجَمِيعَ مُتَسَاوِين.
أَمَّا مَن فَقَد عَقْلَه،
فَلَم يَعُد إِنْسَانًا،
وَالْحَدِيثُ مَعَه هِبَةٌ بِلاَ قِيمَة،
لأَنَّه لاَ يَتَحَكَّمُ بِالْكَلاَم
هُوَ شَقِيقٌ لِلْحَيَوَانَاتِ وَأَقْرَانِه-
أُضْحُوكَة،
فَكُلُّ النَّاسِ أَحْرَارٌ فِى السُّخْرِيَةِ مِنْه،
وَلَن يَحْتَرِمَه أَحَدٌ، وَلاَ حَتَّى الرَّب!

الصيَّاد: هُنَا، هَا هُو.
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنَا لَن نَعْثُرَ عَلَيْهِ أَبَدًا!

الأمير: لِمَاذَا جِئتَ هُنَا؟

الصيَّاد: أَرْسَلَتْنَا الأَمِيرَةُ يَا سَيِّدِى.
فَهِىَ خَائِفَةٌ عَلَيْك.

الأمير: إِنَّهَا مُلاَحَقَةٌ لاَ تُحْتَمَل.
أَم أَنَّنِى طِفْلٌ صَغِير
يَجِبُ أَلاَّ يَسِيرَ خُطْوَةً وَاحِدَةً بِلاَ مُرَبِّيَة؟

(يخرجان.
تصعد حوريات الماء من النهر)

حوريات الماء: أَخَوَاتِى، هَل نُبَاغِتُهُم

وَنُحِيطُ بِهِم وَهُم يَمْضُون،

نُفْزِعُ خُيُولَهُم، نَرُشُّهَا بِالْمَاءِ وَنُزَلْزِلُهَا،

وَنَحْنُ نَصْفِرُ وَنُقَهْقِهُ حَوْلَهَا؟

لاَ، فَالْوَقْتُ تَأَخَّر.

الظَّلاَمُ يَحلُّ بِالْغَابَة

وَالأعْمَاقُ تَغْدُو الآنَ أَبْرَد.

فَلْنُصْغِ لِصَيْحَةِ الدِّيكِ الأُولَى،

انظُرْن، لَقَد أَفَلَ الْقَمَر.

حوريَّة : فَلْنَبْقَ هُنَا قَلِيلاً، يَا أَخَوَاتِى الْجَمِيلاَت.

أُخرَى : لاَ- فَعَلَيْنَا أَن نَمْضِى- لاَبُدَّ أَن نَمْضِى،

حَيْثُ تَسْتَدْعِينَا الْقَيْصَرَةُ الصَّارِمَة

وَهِىَ تَنْتَظِرُنَا فِى الأَعْمَاقِ السُّفْلَى.

فى أعماق نهر الدِّنيبَر

قصر حوريات الماء

حوريات الماء يجلسن حول القيصرة يغزلن

القيصرة: هَا قَد غَرُبَت الشَّمْسُ، فَاتْرُكْنَ مَغَازِلَكُنَّ، يَا أَخَوَاتِى.
وَالْقَمَرُ يُرْسِلُ أشِعَّته كَعَمُودٍ عَبْرَ الأعْمَاق.
كَفَى، فَلْتَصْعَدْنَ لِتَمرَحْنَ تَحْتَ السَّمَاء،
وَلَكِن حَذَارِ مِن مُضَايَقَةِ أىِّ مَخْلُوق:
فَلاَ مُشَاكَسَةَ اللَّيْلَةَ لِلْمَارَّة،
وَلاَ تَدْفَعنَ بِالأعْشَابِ وَالطَّحَالِب
لِتَعلَقَ بِشَبَكَةِ الصَّيَّادِ الْكَبِيرَة،
وَلاَ تُغْوِين الطِّفْلَةَ الصَّغِيرَة
بِحِكَايَاتِ الأسْمَاكِ تَحْتَ الْمَاء.
(تدخل طفلة الماء)
أَيْنَ كُنْتِ؟

الابنة : كُنْتُ أَزُورُ جَدِّى فَوْقَ الأرْض.

كَانَ دَائِمًا مَا يَرْجُونِى أَن أُلَمْلِمَ لَه النُّقُود
الَّتِى كَانَ يَقْذِفُهَا فِى الْمَاءِ لَنَا فِى الْمَاضِى،
وَأُعِيدَهَا إِلَيْه.
بَحَثْتُ، وَبَحَثْت،
وَرَغْمَ أَنِّى لاَ أَعْرِفُ مَاذَا تَكُونُ تِلْكَ النُّقُود،
إِلاَّ أَنِّى جِئْتُه بِحِفْنَةٍ مِنَ الأَصْدَافِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الأَعْمَاق،
مِن كُلِّ الأَلْوَان،
فَابْتَهَجَ كَثِيرًا.

القيصرة: يَا لَه مِن بَخِيلٍ مَأفُون!
الآنَ، اسْمَعِى لِى يَا ابْنَتِى، وَانْتَبِهِى،
فَأَنَا أَضَعُ ثِقَتِى فِيكِ، هَذِهِ الْمَرَّة.
سَيَأتِى- اللَّيْلَةَ- رَجُلٌ إِلَى شَاطِئِ النَّهْر.
سَتَنْتَبِهِينَ لَه، وَتَذهَبِينَ لِمُقَابَلَتِه.
إِنَّه مِن أُسرَتِنَا- أَبُوكِ، يَا طِفْلَتِى.

الابنَة: أَهوَ الرَّجُلُ الَّذِى تَخَلَّى عَنْكِ
لِيَتَزَوَّجَ بِامرَأَة فَانِيَة؟

القيصَرة: هُوَ نَفسُه، فَلْتُحَيِّيه بِرِقَّة،
وَلْتَحكِى لَه كُلَّ مَا تَعْرِفِينَ مِنِّى عَن مَوْلِدِك،

احْكى لَه أَيْضًا مَا حَدَثَ لِى.
وَلَو سَأَلَك عَمَّا إِذَا كُنْتُ قَد نَسَيتُه،
فَقُولِى لَه إِنَّنِى أَذْكُرُه وَأُحِبُّه،
وَأَدْعُوه إِلَى بَيتِى.
هَل فَهِمْتِ- الآنَ- يَا ابْنَتِى؟

طفلةُ المَاء: أَفْهَمُك.

القيصرة: إِذًا، فَاذْهَبِى.
(على انفرَاد)
هَا قَد مَرَّت سَبْعُ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ طَوِيلَة،
مُنْذُ تِلْكَ السَّاعَة الْمَشئُومَة،
عِنْدَمَا قَفَزْتُ، مَجْنُونَةٌ مِنَ الْحُزْنِ، إِلَى الْمَاء،
فَتَاةٌ بَسِيطَةٌ، يَائِسَةٌ، مَهْجُورَة،
وَصَحَوْتُ مِن جَدِيدٍ تَحْتَ نَهْرِ الدِّنِيبَر،
رُوحًا مَائِيَّةً ذَات سُلْطَان، وَبِلاَ عَاطِفَة...
وَأُخَطِّطُ - كُلَّ يَومٍ - وَأَعتزم الانْتِقَام.
وَأَخِيرًا، هَا هِىَ سَاعَتِى - اليَوْمَ - تَحِين.

الشَّاطئ

الأمير : هَا أَنَا- بِلاَ قَصْدٍ- أَجِيءُ إِلَى هَذِهِ الشَّوَاطِئِ الْحَزِينَة
مَشْدُودًا بِفِعْلِ قُوَّةٍ مَجْهُولَة-
لاَ أَدْرِي لِمَاذَا...
وَكُلُّ شَجَرَةٍ وَصَخْرَةٍ تُحَدِّثُنِي عَن الْمَاضِي.
تُعِيدُ حَكْي الْحِكَايَة الْحَزِينَة وَالْحَبِيبَة
لأيَّامِ شَبَابِي، شَبَابِيَ الْجَمِيلِ بِلاَ هُمُوم.
فَهُنَا، انْتَظَرَتْنِي حَبِيبَتِي أَكْثَرَ مِن مَرَّة-
حَبِيبَتِي السَّخِيَّةُ، الْمُتَوَهِّجَة-
آهٍ، كَم كُنْتُ مَجْنُونًا أَن أَتْرُكَ هَذِهِ الْبَهْجَة
تَتَسَرَّبُ مِن بَيْن أَصَابِعِي،
أَن أَتَخَلَّى عَن تِلْكَ السَّعَادَة- يَا لَهَا مِن سَعَادَة..
كَم هِيَ مُحْزِنَة،

كَم هِيَ مُحْزِنَةٌ هَذِهِ الأفْكَار.

وَلِقَاءُ الأمْسِ أعَادَهَا مِن جَدِيد.

ذَلِكَ الأبُ المَجْنُونُ، الْبَائِس!

إِنَّه رَهِيب.

رُبَّمَا قَابَلْتُه الْيَوْمَ مَرَّةً أُخْرَى

وَوَافَقَ عَلَى أن يَتْرُكَ الْغَابَة

وَيَأتِي لِيَعِيشَ مَعَنَا

(تخرج طفلة الماء إلى شاطئ النهر)

مَاذَا أرَى!

مِن أيْنَ أتَيْتِ، أيَّتُهَا الطِّفْلَةُ الْجَمِيلَة؟

إضاءات

النُّصُب الذى أقمتُه...: عَمُودِ الكسِنِدَر: هو عمود النصر المنصوب فى ميدان القصر بسانت بطرسبرج كتذكار لانتصار روسيا فى حرب ١٨١٢ خلال حُكم الكسندر الأول. وفى مخطوط بوشكين، كان السطر الرابع ينطوى على نبرة أكثر سياسية:

وَطَويلاً سَيُوَقِّرُنِى مَعَ ذَلِكَ الشَّعب
لأنِّى اكتَشَفتُ نَغَمَات جَدِيدَةً فِى الغِنَاء،
وَمِثلَ رَاديشِييف، غَنَّيتُ الحُرِّيَّة،
وَجَعَلتُ قِيثَارَتِى تُرَدِّدُ مَدِيحَ الرَّحمَة.

إلى شادابيف: القصيدة موجهة إلى أحد أصدقاء بوشكين الحميمين: ب. ى. شادابيف (١٧٩٤-١٨٥٦)

المفكر التقدمى والتنويرى، الذى كانت له شعبية استثنائية.

إلى... كيرن: مهداة إلى أنَّا كيرن التى التقى بوشكين بها للمرة الأولى فى سانت بطرسبرج عام ١٨١٩. وقد التقى بها مرةً أخرى فى صيف ١٨٢٥؟ خلال منفاه فى ميخايلوفسكوى، حيث جاءت لتقيم لدى بعض أصدقائها فى تريجورسكوى القريبة.

النَّبِى: كُتبت بأسلوب "سِفر إشعيا" بالعهد القديم، المفعم بكراهية الملوك. ووفقًا لمعاصرى بوشكين، فقد كتب ثلاث قصائد أخرى مشابهة، لكنها فُقدت. وقد كتب القصيدة الحالية عقب علمه بإعدام الديسمبريين الخمسة. وكانت البداية الأصلية للقصيدة:

قَلبِى مُمَزَّقٌ بِالأَلَم...

واضطُر بوشكين إلى تعديلها هى والخاتمة التى كانت:

وَهَذَا مَا قَال:

انهَض، يَا ابْنِى وَابنَ رُوسيَا!

ارتَدِ أثوَابَ العَارِ وَالخِزىِ الأسوَد
وَوَجهُ جَلاَّدِكَ يَلُفُّ الحَبلَ عَلَى عُنُقِك،
وَهوَ يُخرِسُ كَلِمَاتِهِ الأُولَى المُختَنِقَة.

ماذا يعنى لك اسمى: كتب بوشكين هذه القصيدة فى ألبوم كارولينا سوبانسكا، إحدى الفاتنات الشهيرات فى تلك الحقبة.

عندمَا أخذُ قوامكِ النَّحِيل: مهداة إلى "ناتاليا جونشاروفا"، زوجة بوشكين المستقبلية.

المُغَنِّى: العنوان ترجمة لكلمة "Arion" وهو شاعر موسِيقِى- فى الأساطير اليونانية- أنقذه دولفين من الموت غرقًا من أجل موسيقاه. وكُتبت القصيدة فى ١٦ يوليو ١٨٢٧فى الذكرى الأولى لإعدام الديسمبريين الخمسة. ويكشف بوشكين فى القصيدة عن طبيعة علاقته بالديسمبريين.

على تلال جورجيا: من الواضح- من السطر الأول للقصيدة- أن بوشكين قد استلهمها من ذكريات المرة الأولى التى ذهب فيها إلى القوقاز، فى صيف ١٨٢٠ مع أسرة الجنرال رايفسكى.

عميقاً فى مناجم سيبيريا: القصيدة موجهة إلى الديسمبريين الذين حُكم عليهم بالأشغال الشاقة فى سيبيريا، بعد فشل الانتفاضة.

انشار: إحدى أشجار جاوه، كان يستخدم عصيرها كسُم للسهام. وعندما أعيد نشر القصيدة، أحل بوشكين كلمة "الأمير" محل "القيصر"، بعد أن أثار النشر الأول لها استياءً بالغًا من قِبَل بنكندورف، قائد البوليس القيصرى.

لا تُغنى، أيتها الجميلة: قال المؤلف الموسيقى ميخائيل جلينكا إن بوشكين قد كتب هذه القصيدة "على نغمة أغنية جورجية تصادف أن سمع تلميذته أ. أولينينا تغنيها".

الأسير: استلهم بوشكين القصيدة من زيارته لسجن كيشنيف. وقد لُحِّنت القصيدة، وأصبحت أغنية جميلة.

هو الوقت...: فى هذه القصيدة، المهداة إلى زوجته، يعبر بوشكين عن رغبته المشبوبة فى الاعتزال، ومغادرة سانت بطرسبرج، والهروب من البلاط القيصرى والمجتمع، ليستقر فى الريف، ويتفرغ للكتابة.

الفارس البرونزى: كُتبت فى "بولدينُو" فى أكتوبر ١٨٣٣ وهى آخر القصائد الدرامية الطويلة التى كتبها بوشكين. وتقدم بُطرُس الأكبر كشخصيه مركبة بصورة ديالكتيكية: فهو إصلاحى عظيم، وقيصر رسَّخ بنية الدولة الروسية، لكنه- فى نفس الوقت- "التِّمثَال المُتَغَطرِس المَقِيت" للأوتوقراطية الذى يسحق كل ما يعترض طريقه.

وبعرض القصيدة على "نيقولا الأول" للموافقة على النشر، قام بشطب كلمة "التمثال" وحذف المقطع التالى:

وَتَخْبُو مُوسكُو القَدِيمَةُ بِجَانِبِ غَرِيمَتِهَا.
عَجُوزًا مهِيبَةً، أَقَلَّ بَهَاءً،
احتَجَبَت أَضْوَاؤُهَا بِالوَافِدِ الْجَدِيد
الذِى اعْتَلَى الْعَرْشَ، فِى الثَّوبِ الأُرْجُوَانِى.

كما وضع القيصر علامات استفهام على العديد من الأبيات، بما يفسد القصيدة بدرجة خطيرة لو تم العمل بها، حيث يضعف إلى حد بعيد المعنى التاريخى السياسى للقصيدة.

لذا، قرر بوشكين عدم نشرها فى ذلك الحين، ولم ينشر أثناء حياته سوى "المقدمة". وبعد ثلاث سنوات، نشر بوشكين القصيدة فى مجلته "المعاصر"، بعد أن عدَّل فيها حسبما حدد القيصر من قبل: استبدل كلمة "التمثال" بـ"الراكب"، وغيَّر بصورة طفيفة فى الجزء الرئيسى الذى يصف "تمرد" يڤجينى على بطرس الأكبر، الذى حظى بالنصيب الأوفر من علامات استفهام وتعليقات القيصر. وبعد وفاة بوشكين، قام جوكوفسكى بمهمة مراجعة القصيدة، وإعادتها إلى حالتها الأولى.

أما الفيضان الذى تصفه القصيدة، فقد حدث فعلاً فى سانت بطرسبرج، فى ٧ نوفمبر ١٨٢٤ وتسبب فى دمار هائل. كان بوشكين فى ذلك الحين- فى "ميخايلوفسكوى". وفى إحدى رسائله إلى شقيقه- فى ٤ ديسمبر ١٨٢٤- كتب إليه: "... إن الفيضان يملأ عقلى طول الوقت"؛ واعتبر الإجراءات التى اتخذتها الحكومة لمساعدة

المنكوبين غير كافية إطلاقاً. وطلب منه
لو كان لك أن تساعد سيئى الحظ هؤلاء.
فاستخدم أموال "أونيجين" (يقصد الأموال
التى عادت على بوشكين من نشر الفصل
الأول من عمله "يوجين أونيجين").
ف. ن. بيرش هو مؤلف كتاب "وصف تأريخى
تفصيلى لجميع الفيضانات التى وقعت فى
سانت بطرسبرج" (سانت بطرسبرج، ١٨٢٦).
ونسخة من الكتاب كانت موجودة بمكتبة
بوشكين.

تَوَقَّفَ هُو: المقصود هو بُطرُس الأكبر.

سَنُؤَسِّسُ مَدِينَة: سانت بطرسبرج.

نَافِذَةٌ سَنَعبُرُهَا إِلَى أُورُوبَا: يذكر بوشكين فى أحد هوامشه: "قال الجاروتِّى فى موضع ما: "بطرسبرج هى النافذة، التى تطل منها روسيا على أوروبا". والجاروتِّى (١٧١٢-١٧٦٤) ناقد وفيلسوف إيطالى.

إِنَّنِى أُحِبُّك، يَا إِبدَاعَ بُطرُس المهيب: أضاف بوشكين فى هامش: "انظر قصيدة الأمير ڤيازمسكى إلى الكونتيسة ز. محادثة

٧ أبريل ١٨٣٢" (والقصيدة مهداة إلى الأميرة إ. م. زافادوفسكى).

ساحَة "مَارس": ميدان فى سانت بطرسبرج كانت تتم فيه الاستعراضات العسكرية.

ثَلْجيَّةٌ بِأَنفَاسِ نُوفَمبرِ القَارِس: أضاف بوشكين فى هامش له: "قام ميكيفيتش- فى واحدة من أفضل قصائده: "أوليزكيفيتش"- بوصف اليوم السابق على فيضان بطرسبرج، فى أبيات بالغة الجمال. ومن المؤسف أن وصفه غير دقيق. فلم يكن ثمة جليد، ولم يكن النيفا مغطّى بالثلج. ووصفنا أصح، رغم أنه يفتقر إلى الألوان الرائعة للشاعر البولندى".

وَرَغمَ أَنَّ "كَارَامزِين" كَانَ قَد سَجَّلَ شُهْرَتَه: ن. م.

كارامزين (١٧٦٦-١٨٢٦): كاتب وشاعر ومؤرخ روسى شهير. ولابد أن بوشكين كان يعنى كتابه المعروف "تاريخ الدولة الروسية".

وَهوَ يَعِيشُ فِى "كُولُومنَا": إحدى ضواحى سانت بطرسبرج.

وَالقَيصَرُ الرَّاحِلُ المُبَجَّل: المقصود هو الكسندر الأول.

نَهَضَ بِجَانِبِ مَدْخَلِه أَسَدَانِ هَائِلاَن: الأسدان الحجريان اللذان يزينان مدخل مبنى وزارة الحربية.

وَحِصَانُه، أَيَّةُ نَارٍ فِي عَينَيه!: تمثال بطرس الأكبر الذى أنجزه إ. م. فالكونيه (١٧١٠-١٧٩١).

الغجَر: بدأ بوشكين فى كتابتها فى يناير ١٨٢٤ قبل نفيه إلى "ميخايلوفسكوى". وفى منفاه عاد إليها، واستمر يعمل فيها مدة شهرين كاملين حتى أنهاها. ولم يسمح الوضع السياسى- عقب فشل انتفاضة الديسمبريين- بنشرها. لكن نُسخًا بخط اليد للقصيدة- المفعمة بالتوق إلى الحرية وكراهية النظام الاجتماعى والسياسى فى تلك الحقبة- انتشرت بصورة واسعة النطاق، وأصبحت قصيدةً شعبية لدى الأوساط الديسمبرية. وفى رسالة بتاريخ ٢٥ مارس ١٨٢٥كتب ريلييف إلى بوشكين: "الجميع مفتونون بغجرك".

ولم تسمح الأوضاع اللاحقة لانتفاضة الديسمبريين بنشر القصيدة، التى لم يُقدَّر لها النشر إلا عام ١٨٢٧ ?دون ذكر اسم المؤلف، واكتُفى فحسب بكتابة "كُتبت فى ١٨٢٤".

الأسطُورَةُ التِى لَم تَمُت أَبَدًا: الإشارة إلى "أوفيد" الشاعر الرومانى المنفِى.

موزار وساليرى: وضع بوشكين خطة المسرحية عام ١٨٢٦ فى ميخايلوفسكوى، واكتملت المسرحية فى ٢٦ أكتوبر ١٨٣٠ فى بولدينو. وكان بوشكين يريد- فى الأصل- أن يضع للمسرحية عنوان "الغيرة"، وهو ما تشير إليه الملحوظة التى كتبها أوائل الثلاثينيات:

"خلال أول عرض لـ"دون جيوفانّى"، حين أنصت الجمهور كله- الملىء بالخبراء المدهوشين- بنشوة إلى موسيقى موزار، أطلق شخصٌ ما صفيرًا. التفت الجميع إلى مصدر الصوت بازدراء، ورأوا ساليرى الشهير يغادر القاعة فى غضب، وقد أكلته الغيرة. وتوفى

سـاليـيـرى بعـد ثمـانـى سنـوات تقـريبـاً. وقـالت إحـدى المجـلات الألمانـيـة إن سـاليـيـرى- عـلى فـراش الموت- قـد اعتـرف بجـريمته الـرهـيبـة فى تـسـمـيم موزار الـعـظيم. فـأى رجل غـيـور يـطـلق صـيـحـة استـهـجان من "دون جيـوفـانّى" كان قـادراً على تسـميم صـانع هـذه الموسيقى".

وقـد نُشـرت أخبـار اعتـراف سـاليـيـرى (١٧٥٠- ١٨٢٥) عـلى فـراش الموت- بتـسـمـيم موزار- فى عـدد من الصحف الأوروبية عام ١٨٢٥ بما حفز بـوشـكين عـلى كتـابـة هـذه المسـرحيـة. وقـد دافع أصـدقـاء سـالـيـيـرى عـنه بـالـقـول إنه قـد أعـلن اعـتـرافـه فـى لحـظـة تـشـوش عـقـلـى. ومـا يـزال بـعـض الـبـاحـثـين المحـدثـين يثـبـتون أن سـاليـيـرى كان- فـى الواقـع- مذنبـاً فـى هـذه التهـمة.

وتعـتبـر هـذه المسرحية هـى الوحيدة من أعـمال بوشـكين الـتـى عُرضـت خـلال حيـاتـه، فـى سـانـت بـطـرسـبـرج، فـى ٢٧ يـنـايـر- ١ فـبـرايـر ١٨٣٢؟ فـيـمـا كـانـت مـصـدر إلـهـام لـبـعـض كـتـاب الـقـرن العشـرين.

إفيجينيا: إشارة إلى إحدى أوبرات "جلوك".

جلُوك (كريستوف ويلبالد): مؤلف موسيقى ألمانى (١٧١٤- ١٧٨٧). قام بتجديد الأوبرا، بعيدًا عن المؤثرات الإيطالية، باحثًا عن البساطة والطبيعية. من أعماله "أورفى وإيريدِس" و"ألسيست".

"فوا شى سابيت": إحدى مقطوعات "زواج فيجارو" لموزار.

"تَارَار": أوبرا من تأليف ساليرى، على كلمات لبومارشيه.

بيتشينِى (نيقولو): مؤلف موسيقى إيطالى (١٧٢٨- ١٨٠٠). ألَّف أكثر من ١٣٠ أوبرا. أدت خصومته مع جلوك إلى معركة بين أنصاره (أنصار التقنية واللغة الإيطاليتين) وأنصار جلوك (أنصار الأوبرا باللغة الفرنسية والموسيقى الرصينة).

هايدِن (فرانز جوزيف): مؤلف موسيقى نمساوى (١٧٣٢- ١٨٠٩). ألَّف ١٠٤ سيمفونيات. وتغطى أعماله نهايات حقبة الباروك وصولاً إلى بدايات الرومانتيكية. وقد ساهم فى تحديد البنية الكلاسيكية للسيمفونية، واشتُهر بالمقطوعات الموسيقية الدينية. وقد ألَّف أعماله فى كافة الأشكال الموسيقية الكلاسيكية.

و"بوناروتى": تذكير بالأسطورة المختلقَة التى تدعى أن مايكل انجلو- الفنان الإيطالى العظيم- قد طعن بالسكين الرجل/الموديل حتى يتمكن من التصوير الحى لآلام موت المسيح.

حورية المَاء: أعد بوشكين خطة المسرحية فى منفاه بميخايلوفسكوى عام ١٨٢٦ وكتب المسرحية فيما بين نوفمبر ١٨٢٩ وأبريل ١٨٣٢. وفى المخطوط الأصلى، لا تحمل المسرحية عنوانًا، والعنوان الحالى هو من اقتراح مجلة "سوفريمينيك"، حيث نُشرت المسرحية للمرة الأولى عام ١٨٣٧.

الأعلاَم

الكسندر الأول (١٧٧٧-١٨٢٥): قيصر روسيا فى الفترة (١٨٠١-١٨٢٥). نشر الأوهام عن ليبراليته، ثم ما لبث أن اتبع سياسةً رجعيةً تمامًا فى الداخل والخارج، وخاصةً بعد الانتصار الروسى على جيوش نابليون فى ١٨١٢ الذى زاد من شعبيته. وخلال عهده، نُفى بوشكين إلى إيكاترينوسلاف، ثم إلى ميخايلوفسكوى.

بنكندورف (١٧٣٨-١٨٤٤): قائد البوليس فى روسيا فى عهد نيقولا الأول وساعده الأيمن.

بوجاتشو: قائد الحرب الفلاحية الكبرى عام ١٧٧٣. وهى أقوى حركة معادية للإقطاع فى تاريخ روسيا. وقد اندلعت خلال حكم يكاترينا الثانية.

بيلينسكى (١٨١١-١٨٤٨): أحد مؤسسى الأيديولوجية الديمقراطية الثورية، وأحد مؤسسى الاتجاه الواقعى فى الأدب الروسى. وضع مؤلفات اجتماعية وأبحاثًا عديدةً فى الأدب، حلل فيها تطور الأدب الروسى وقضاياه الكبرى.

جوجُول (١٨٠٩-١٨٥٢): روائى وقصاص روسى، وأحد كبار كتاب القصة فى العالم. لعب دورًا حاسمًا فى صياغة الاتجاه الواقعى فى الأدب الروسى.

جوكوفسكى (١٧٨٣-١٨٥٢): شاعر ومؤسس الاتجاه الرومانتيكى فى الأدب الروسى، لكن أشعاره الحالمة كانت بعيدةً عن الحياة الروسية. وكان مُقربًا من القيصر نيقولا الأول.

دارشياك: موظف بالسفارة الفرنسية. شاهد "دانتِس"- قاتل بوشكين- فى المبارزة.

دانتِس: بارون فرنسى، هاجر وانضم إلى الجيش الروسى. تبناه البارون "هيكرن"- وزير هولندا المفوض فى العاصمة الروسية- بصورة رسمية، ووجد فيه "دانتِس" نفوذًا وحماية. كان موضع إعجاب كبير من نساء مجتمع سانت-بطرسبرج

الـراقى. لاحق زوجـة بـوشـكـين بـإلحـاح، ودفع بحملة الشائعات والنميمة إلى أقصاها لتُمسك بـخنـاق بوشـكين. واسـتمـر فى مغازلـة زوجته- بعد زواجه من شقيقتها- مدعومًا بنفوذ البارون "هيكرِن" فى الأوساط العليا لسانت-بطرسبرج، ومـوافـقـة نيقـولا الأول الـصـامتـة، بما اضطـر بوشكين إلى إرسال التحـدى الأخيـر للمبارزة القاتلة.

درجافين (١٧٤٣-١٨١٦): أبـرز شـعـراء الـقـرن الـثـامن عشر فى روسيـا. طـور لـغـة الـشـعـر الـروسـيـة، ومهد لظهور بوشكين.

دلفيـج: شـاعـر روسى، صـديق بـوشـكـين. أصـدر "الجـريـدة الأدبيـة" فى ١٨٣٠ ?وأثـار ظهـورهـا القلق فى الأوساط القيصرية، رغم أنها أدبية.

راديشييف (١٧٤٩-١٨٠٢): أحـد رواد الـفـكـر الـتـنـويرى فى روسيـا. نُفى إلـى سيبيريا بسبب كتابه "رحلة من بطـرسـبـرج إلى موسـكـو"، الـذى ارتـفـعت فيـه- لأول مرة فى التـاريخ الـروسى- الـدعوة للـقضـاء على عـبـودية الأقـنان والحـكم المطلق، ولإقـامة

الجمهورية. عاد إلى بطرسبرج عام ١٨٠١. وانتحر فى العام التالى. تركت مؤلفاته أثرًا بارزًا فى تطور الأفكار الاجتماعية فى روسيا.

شاداييف (١٧٩٤-١٨٥٦): فيلسوف مثالى روسى. نشر فى ١٨٣٦ "رسالة الفلسفة"، وكانت نقدًا حادًا لنظام القنانة فى روسيا، وشكلت- رغم طابعها التشاؤمى- نقطة انطلاق ثورى بعد هزيمة الديسمبريين.

كارامزين (١٧٦٦-١٨٢٦): كاتب وناقد ومؤرخ. اعتُبر حُجة زمانه فى النقد والتاريخ. ساهم فى تطوير اللغة والأدب فى روسيا.

لومونوسوف (١٧١١-١٧٦٥): شاعر وفيلسوف، وأحد كبار علماء القرن الثامن عشر. لعبت مؤلفاته دورًا كبيرًا فى تطوير اللغة والأدب الروسى.

ليرمونتوف: (١٨١١-١٨٤١) ثانى أكبر شاعر روسى بعد بوشكين، وأحد كبار الروائيين الروس. شغل الفراغ الشعرى الذى خلفه مقتل بوشكين المفاجئ، ودفع بالشعر والرواية الروسية خطوات إلى الأمام. قُتل- هو أيضًا- فى مبارزة مشبوهة.

نوفيكوف (١٧٤٤-١٨١٨): من أبرز ممثلى حركة التنوير الروسية فى القرن الثامن عشر. أصدر مجلتَى "اليعسوب" و"الرسام" الساخرتين. فضح قسوة نظام القنانة، ونشر- لأول مرة فى روسيا- مؤلفات شكسبير وثيرفانتيس وموليير وبومارشيه. أسس أول مجلة روسية للأطفال. ألقى القبض عليه عام ١٧٩٢ لنشاطه المناوئ لنظام القنانة.

نيقولا الأول (١٧٩٧-١٨٥٥): قيصر روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥) اعتلى العرش عقب وفاة الكسندر الأول. دشن حكمه بالتصفية الدموية لانتفاضة الديسمبريين. تُعتبر فترة حكمه من أقسى فترات تاريخ روسيا القيصرية.

هيرزن (١٨١٢-١٨٧٠): من أكبر المفكرين الروس، ومؤسس الحركة الثورية المعادية للأوتوقراطية القيصرية. فضح- فى أعماله الأدبية- نظام الحكم المطلق وظلم القنانة، ولعب دورًا رائدًا فى النضال ضدهما.

المصَادر

Alexander Pushkin, Selected Works in two Volumes, Volume one, Poetry, Progress Publishers, Moscow, Second printing, 1976.

Plekhanov, Art and social life, Progress Publishers, Moscow, third printing, 1977.

جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، ترجمة الدكتور صالح جواد الكاظم، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية، سلسلة الكتب المترجمة، بغداد ١٩٧٨.

ف. كيربوتين، أ. ليجنيف، ق. فرمان، جيرمونسكى: بوشكين، ترجمة خيرى عزيز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٤.

م. أوفسيانيكوف، ز. سميرنوفا: موجز تاريخ النظريات الجمالية، ترجمة باسم السقا، دار الفارابى، بيروت ١٩٧٥.

لافريتسكى: فى سبيل الواقعية، ترجمة الدكتور جميل نصيف، مراجعة الدكتورة حياة شرارة، منشورات وزارة الإعلام العراقية، سلسلة الكتب المترجمة، بغداد ١٩٧٤.

هنرى ترويا: بوشكين، تلخيص الدكتور فؤاد أيوب، دار بيروت

للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٦.

يبيڤانوف، ڤيدوسوف: موجز تاريخ الاتحاد السوفييتى، ترجمة خيرى الضامن ونقولا طويل، دار التقدم، موسكو.

للمترجم: رفعت سلاَّم

١ ـ أعمال شعرية:

وردة الفوضى الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

إشراقات رفعت سلاَّم (طبعة غير كاملة)، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الكاملة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢.

إنها تُومئ لى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٣، سلسلة "نوافذ"، القاهرة ١٩٩٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥.

هكذا قُلتُ للهاوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣.

إلى النَّهار الماضى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨.

كأنَّها نهاية الأرض، مركز الحضارة العربية، القاهرة ١٩٩٩.

حجر يطفو على الماء، دار "الدار"، القاهرة ٢٠٠٨.

٢ ـ دراسات:

المسرح الشعرى العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

بحثًا عن التراث العربى: نظرة نقدية منهجية، دار الفارابى، بيروت ١٩٩٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦.

بحثًا عن الشّعر، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة "دراسات نقدية")، القاهرة ٢٠١٠.

٣ - ترجمات:

بوشكين: الفجر.. وقصائد أخرى، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٢.

ماياكوفسكى: غيمة فى بنطلون.. وقصائد أخرى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٨٥،طبعة مزيدة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

كربرشويك: الإبداع القصصى عند يوسف إدريس، دار شهدى، القاهرة ١٩٨٧، طبعة كاملة: دار سعاد الصباح، القاهرة والكويت ١٩٩٣.

ليرمونتوف: الشيطان.. وقصائد أخرى، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة ١٩٩١، دار "نفرو"، القاهرة ٢٠٠٧.

يانيس ريتسوس: اللذة الأولى (مختارات شعرية)، الملحقية الثقافية اليونانية، القاهرة ١٩٩٢، دار الينابيع، دمشق ١٩٩٧.

هذه اللحظة الرهيبة (قصائد من كرواتيا)، المركز المصرى العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧.

يانيس ريتسوس: البعيد (مختارات شعرية شاملة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

جريجورى جوزدانيس: شعرية كفافى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩.

دراجو شتامبوك: نجومٌ منطفئةٌ على المنضدة، (صدر- خطأً- بعنوان "لغة التمزق")، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١، دار "نفرو"، القاهرة ٢٠٠٧.

مراجعة وتقديم:

شارل بودلير: الأعمال الشعرية الكاملة، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٠.

سوزان برنار، قصيدة النثر من بودلير حتَّى الآن،

مراجعة وتقديم: دار شرقيات، القاهرة ، ١٩٩٨/ ٢٠٠٠.

مراجعة: برنار نويل، ماجريت، ترجمة راوية صادق، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٩.

مراجعة وتقديم:

جان ديڤاسًّا نياما، ثلاثية "الكالبَاس" الروائية، ترجمة عاطف عبد المجيد، د. نسرين شكرى، إيمان رياح، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠.

الفهرس

الغجر.. وقصائد أخرَى

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية
عبدالمنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -
الجيزة

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريبا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة. ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. maktabetelosra. org.eg
E - mail : info@egyptianbook.org.eg



تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعًا بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاء تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فنجحت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام ١٩٩٤، هي المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقًا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها في متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طول العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهي أن من يستطيع القراءة، يستطيع رؤية ضعف مايراه الآخرون.

سوزان مبارك









٢٠١٠

٤ جنيهات